الأندلس

دراسة تاريخية حضارية

دكتور
محمد كمال شبانة

دار العالم العربي
DAR AL-AALM AL-ARABI

الأندلــس

دراسة تاريخية حضارية

© دار العالم العربي

19 شارع امتداد رمسيس ـ القاهرة

تليفاكس: 22616130

e-mail :af_madkour@yahoo.com

تجهيزات فنية: الإســراء ـ تليفون: 33143632

رقم الإيداع: 22522 / 2007

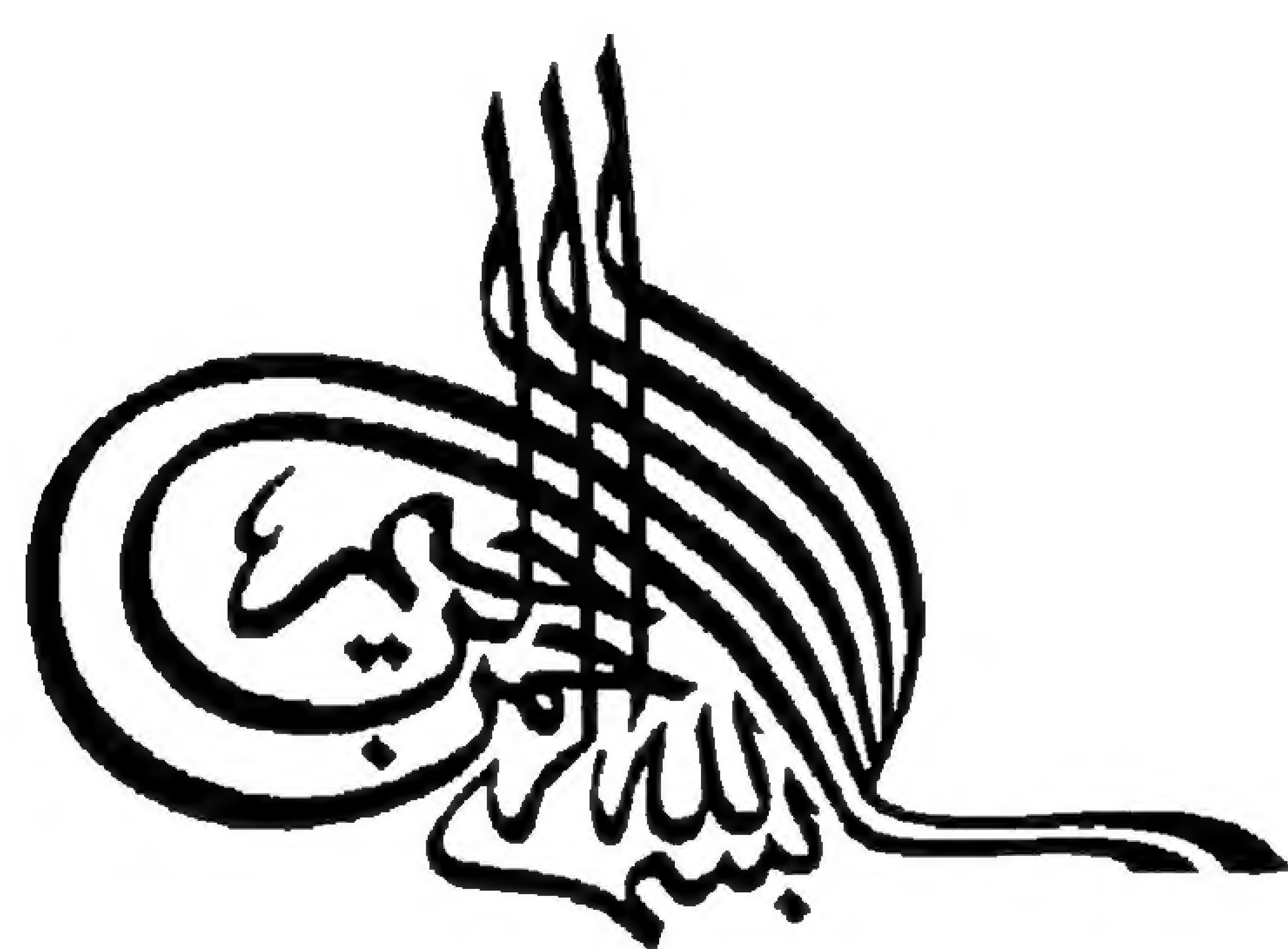
الطبعة الأولى: المحرم 1429 هـ ـ يناير 2008 م.

الأندلس

دراسة تاريخية حضارية

دكتور
محمد كمال شبانة
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
بجامعات مصر والمغرب والسعودية

دار العالم العربي
DAR AL-AALM AL-ARABI



مقدمة

يُدرَّس تاريخ المغرب والأندلس لأهميته التى ترجع إلى ناحيتين:

الأولى: تتعلق بالتاريخ الإسلامى.

والثانية: تتصل بالتاريخ العام.

فمن زاوية التاريخ الإسلامى نرى أن المغرب والأندلس قد شملتا دولا إسلامية نشرت الحضارة الإسلامية بالمنطقة، ونشأت دول نشبت بينها خلافات كونت شقا من الأمة الإسلامية، فمن المسلَّم به أنه بعد تأسيس الدعوة الفاطمية بمصر كان العالم الإسلامى يتألف من شقين متمايزين، هما: المشرق الذى كان تحت حكم العباسيين سياسيًّا وروحيًّا، والمغرب الذى كانت تحكمه الخلافة الفاطمية فى مصر وشمال إفريقيا بسيطرة روحية وسياسية كذلك، بالإضافة إلى الأندلس التى كانت يومئذ تحت إمرة الدولة الأموية.

وقد تميز تاريخ الأندلس بظروف معينة وتاريخ خاص يستأهل عناية المؤرخ، الأمر الذى يُملى على من يتصدى لتأريخ الأحداث الإسلامية أن تكون دراسته شاملة لجناحى العالم الإسلامى؛ حتى يتمكن من المقارنة والمزاوجة بين الحضارة الإسلامية لهذه الأمة شرقًا وغربًا، وليقف على مقومات هذه الحضارة عند هؤلاء وأولئك، بالإضافة إلى المستجدات والمعطيات فى هذا الميدان.

فأما أهمية دراسة تاريخ المغرب والأندلس من وجهة التاريخ العام؛ فإن كلا من المغرب الكبير والأندلس كانا يمثلان حلقة اتصال بين العالم العربى بحضارته المشرقة ونظمه وتقاليده، وبين العالم الغربى وما لديه من تقاليد وعقائد، وقد جاز العرب مضيق الزقاق (مضيق جبل طارق) بعد أن استكملوا فتوحاتهم فى الشمال الإفريقى، وغزوا الأندلس وعبروا جبال البرانس، واحتلوا مناطق شتى من العالم الأوروبى، فى جنوب إيطاليا، وفى صقلية، والتحموا بجيوش الفرنجة فى بلاد "غاليا" (فرنسا)، وكان من ثمرة هذا الاحتكاك انتقال الحضارة العربية الإسلامية والتقاليد الشرقية إلى البلاد الأوروبية عن طريق هذا الزحف الإسلامى.

كذلك يكتسى تاريخ المغرب والأندلس أهميةً فى التاريخ العام؛ لكون كل من المغرب الإفريقى والأندلس دخلا دائرة الصراع مع الدولة البيزنطية، فقد لوحظ أن الفاطميين ـ مثلا ـ تحركوا جهة الشرق للغزو، تأمينًا للدولة الإسلامية التى كان يتهددها خطر البيزنطيين حسب دعواهم.

لكل هذا نرى أنه لا ينبغى للمؤرخ أن يتجاهل تاريخ المغرب الإفريقى أو تاريخ الأندلس، فقد وضح لنا هذا الاتصال القوى بين حضارات العالم الإسلامى والغرب الأوروبى، فمن هنا جاءت أهمية الدراسة التاريخية المغربية الأندلسية من كافة جوانبها: السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

شوال ١٤١٦م

مارس ١٩٩٧م

الباب الأول

الفتح الإسلامي في الأندلس

"عصر الولاة"

٩١ ــ ١٣٨هـ/ ٧١١ ــ ٧٥٥م

الفتح الإسلامى للمغرب

عزم عمرو بن العاص على فتح الشمال الإفريقى تأمينا لفتح مصر، فوصلت جيوشه إلى طرابلس، وتلاه عبد الله بن سعد بن أبى السرح، فغزا إفريقية (تونس)، حيث هزم القائد الرومانى جريجوار، إلا أنه لم يفتحها، بل اكتفى بأخذ الغنائم الكثيرة وقفل راجعا، وتوقفت عملية الفتوح عندئذ، تبعا لما كان يدور فى العالم الإسلامى يومئذ من أحداث.

إن الفتح الحقيقى للمغرب يبدأ عام ٥٠هـ (٦٧٠م) فى عهد معاوية بن أبى سفيان، وقد سلك قواد الفتح فى تلك المناطق أسلوبين: أسلوب القوة أحيانًا، وأسلوب السياسة أحيانًا أخرى، فمنهم من كانت قوته تغلب سياسته، ومنهم من كان بالعكس، ولكن سياسة اللين كانت عاملا متفوقا فى جعل الفتح العربى أكثر إنتاجًا وأثبت قدمًا.

لقد قلد معاوية ولاية إفريقية للقائد عقبة بن نافع الفهرى عام ٥٠هـ (٦٧٠م)، وهو أحد رجال عمرو بن العاص البارزين فى ميادين القتال، إذ يمتاز بقوة البأس والحماس الدينى المنقطع النظير؛ فهو ممن تغلب شجاعتهم الناحية السياسية، حتى حاز لقب "قاهر الروم والبربر". فقد فكر عقبة فى أنه لإنجاح الغزو للشمال الإفريقى لا بد من إنشاء قواعد حربية فى بعض المناطق الإستراتيجية، فأقام لذلك

مدينة "القيروان"، بعيدًا عن البحر حيث إمدادات الروم البحرية، ولقربها من الصحراء حيث تصعب محاصرتها، وهكذا اندفع بجيشه غازيا تلك البلاد غربًا حتى بلغ مدينة سبتة، بعد أن قاتل فى طريقه جيوش الروم والبربر التى اعترضته، وأخيرًا رجع إلى قاعدته فى القيروان، ثم حدث أن عزل معاوية عقبة لسبب أو لآخر، وأحل محله القائد "أبا المهاجر دينار"، وهو رجل يختلف فى تفكيره عن عقبة، حيث كان يُغَلِّبُ الناحية السياسية على الناحية الحربية، فهادن البربر واستمالهم إليه، لكى يضرب بهم جيوش الروم عدوه الرئيسى. وفى ذلك بُعد نظر وكياسة؛ لأن جيوش البربر شديدة المراس، فوق أنها عظيمة الأعداد والإعداد، فجعل همه أن يقنع البربر بأنهم أقرب إلى العرب من الروم، وأن هؤلاء العرب لا يقصدونهم بالقتال، وإنما يقصدون الروم. ولقد أثمرت سياسته هذه، إذ استطاع أن يضم إليه زعيم بربر البرانس المسمى "كسيلة"، والذى اعتنق هو وقبيلته الإسلام، ثم تزامل أبو المهاجر وكسيلة فى قيادة جيشهما حتى فتحا مدينة "تلمسان".

لقد حدث أن تطورت الأحداث فى الشرق، فقد عاد "عقبة بن نافع" إلى قاعدته القيروان، وهو أشد حماسًا للقتال، فقد كان يرى أن البربر قوم غدر، ولا تجدى فيهم الأساليب السياسية، وعليه فقد سلك تجاههم سبيل العنف والقهر، وقبض على كسيلة، ولكن كسيلة فر من سجنه، ويسرع عقبة غازيًا للشمال الإفريقى، منطلقا فى اندفاعه حتى وطئت جيوشه أرض السوس الأدنى، ويقف بفرسه على ساحل المحيط الأطلنطى حتى وصل الماء إلى ركابه، ثم انتصى سيفه وهزه قائلًا: "اللهم فاشهد، أنى لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا لخضته غازيا فى سبيلك"، ويتملك الغرور القائد، ولا يحتاط لنفسه ولا يحذر، فقد عاد إلى القيروان فى فرقة صغيرة من جيشه، فتصدى له الروم جنوب تونس، وحاصره "كسيلة" بجموع من البربر من خلفه فى معركة تاهودة"، حيث قتل عقبة وفنى جيشه الإسلامى عن آخره، كما استشهد القائد أبو المهاجر إلى جواره.

هكذا كانت المأساة.. فتولى قيادة الجيش الإسلامى "زهير بن قيس"، الذى قضى نحبه هو الآخر على يد البربر، وجاء بعدئذ "حسان بن النعمان الغسانى" الذى ولاه عبد الملك بن مروان، فسلك مسلك أبى المهاجر نحو البربر سياسة ولينًا، واستمال هؤلاء ليضرب بهم الروم، حتى أمن جانب البربر البرانس، فزحف بهم نحو قرطاجنة، فقضى على حاميتها من الروم، حيث كانت شاطئًا حربيًا للسفن والأساطيل الرومية.

ولكن خطرًا آخر اعترض حسانًا ولم يكن فى حسبانه، وهو عدو صعب المراس، تمثل فى زعيمة بربر البتر المسماة "الكاهنة"، وهى امرأة ذات نفوذ سياسى وروحى عند قومها، فارتد حسان إلى برقة، ولكن خطأ ارتكبته "الكاهنة" كان عاملًا فى انتصار المسلمين، ذلك بأنها صورت لقومها أن العرب إنما جاءوا إلى هذه البلاد طمعا فى خيراتها، فلو أنها وقومها أحرقت الزروع والثمار لما كان لهم مقام عندنا، وعليه فقد انطلقت جيوشها تخرب العمران، وتقضى على الأخضر واليابس، فلجأ البربر(بربر البرانس) إلى حسان يستعدونه على هذه المرأة الحمقاء وقومها، فكانت فرصة سانحة استغلها حسان فى الانتصار على "الكاهنة"، والقضاء عليها وعلى جيشها.

ثم يأتى القائد "موسى بن نصير" الذى وجد البلاد قد نظمها حسان، فسلك سبيله فى العمران، وطبق سياسته نحو البربر، فسوّى بينهم وبين العرب فى الحقوق والواجبات، وضمهم إلى جيشه، حتى صار الجيش الإسلامى الذى غزا إسبانيا يضم أغلبية من القادة والأفراد البرابرة.

لقد فتح العرب الشمال الإفريقى فتحًا معنويًا له صفة الدوام، فقد حلت لغة الفاتح وعقيدته وتقاليده محل لغة وعقيدة وتقاليد أهل تلك البلاد، واعتنق البربر الإسلام، وأضحوا عنصرًا طيبًا وصالحًا إلى جانب المسلمين الفاتحين، وتقبلوا اللغة العربية والعادات الإسلامية بصدر رحب، وعن اقتناع وطواعية.

الأديان فى شمال إفريقيا قبل الفتح الإسلامى

كان البربر عمومًا يدينون بأديان مختلفة، فالمسيحية فى المدن الساحلية، حيث كان الروم يستولون على تلك المناطق، واليهودية داخل البلاد، حيث ينتشر اليهود برحلاتهم التجارية كما جرت عادتهم فى العالم فى كل زمان، كما كانت عبادة الأوثان قائمة لدى البربر، أو عبادة الكائنات والظواهر الطبيعية بين البدو منهم.

وجاء الإسلام فدخل فيه غالبية البربر، ويرجع هذا إلى ما يأتى:

أن المسيحية كانت يومئذ قد ضعف نفوذها فى الغرب، فقد حاربها "الوندال" الذين عبروا من إسبانيا إلى الشمال الإفريقى، فخربوا الكنائس المسيحية وعاثوا فيها فسادًا، يضاف إلى ذلك ما كان من تناحر بين المذاهب المسيحية، وتكفير بعضها بعضًا (الأرثوذكس ـ الكاثوليك ـ البروتستانت)، وهذا جعل البربر لا يطمئنون لهذه الديانة ولا يثقون فيها، الأمر الذى هيأ نفوسهم لتقبل الإسلام، دين السماحة والتعاليم البسيطة الواضحة.

أما اليهودية فقد كانت ديانة البرابرة البتر، وهؤلاء كانوا قلة بزعامة "الكاهنة" التى ألمحنا إلى دورها الفاشل تجاه الجيش الإسلامى، وعليه فإن هذه القلة اليهودية لم يكن لديها الحماس لنشر عقيدتها بقدر ما كان اهتمامها ـ كعادة اليهود دائما ـ باستثمار الأموال، فبقيت هذه الفئة على حالها دون انتشار، ولذلك لم يُسلم هؤلاء اليهود من الشمال الإفريقى، وإنما بقوا على حالهم بعد الفتح.

أما الوثنية فلم يقيض لها البقاء أمام الإسلام وتعاليمه السهلة السمحة، فبالإضافة إلى أن الإسلام يحترم الديانات السماوية، إلا أنه يحارب الوثنية دون هوادة، لذلك نجد عبدة الأوثان قد انجذبوا إلى الدين الإسلامى نتيجة تلك العوامل.

سياسة العرب فى شمال إفريقيا

اتخذ العرب فى شمال إفريقيا سياسة اللين فى تعاملهم مع البربر، بعد أن خبروا طباعهم، ودرسوا أخلاقهم، واستمالوهم إلى الدين الإسلامى بواسطة الفقهاء الذين كانوا ينتشرون بين المناطق السكانية، فقد فعل هذا حسان بن النعمان، وكذا موسى بن نصير، والخليفة عمر بن عبد العزيز الذى أرسل عشرة من كبار التابعين إلى البربر ليفقهوهم فى الدين، فانتشر الإسلام بين هؤلاء انتشارًا عظيمًا، لا سيما أن الدين الجديد قد وافق بساطة البربر، لبعده عن المجادلات والمناقشات، وإقراره مبدئيًا عقيدة التوحيد التى نادت بها الأديان السماوية، وهكذا نرى البربرى ينصاع لعبادة إله واحد، ثم من السهل إقراره برسالة محمد ﷺ فى نفس الوقت.

أما من جهة اللغة، فقد سايرت اللغة العربية الدين الجديد أينما حل وسار، إذ لا بد للمسلم من أن يتلو القرآن، وأن يؤدى الصلوات الخمس بالعربية، وهذا هو الدافع الأساسى لتعلمها.

يضاف إلى هذا ما هو مقرر فى التاريخ من أن المغلوب مضطر إلى أن يقلد لغة الغالب عاجلًا أو آجلًا، ولا ننسى كذلك أن الخليفة عبد الملك بن مروان قد عرّب دواوين الحكومة يومئذ، مما اضطر الموظفين حينئذ إلى أن تكون مكاتباتهم ومعاملاتهم مع الجماهير باللغة العربية، فقد كان من السهل أن تنتشر اللغة العربية بين الشعب البربرى كغيره من الشعوب التى فتحها الإسلام، ذلك تبعا لمبدإ

المساواة الذى نادى به الإسلام، وبمقتضى القيام على الحكم، والمخالطة والمعاشرة، فهذا مما يسهل عملية تشرب البربر لعادات العرب ولغتهم وتقاليدهم.

لقد كان من نتيجة هذا الفتح الإسلامى للشمال الإفريقى أن انحاز البربر إلى العرب فى صفاتهم، بل لقد تحمسوا للانضمام إلى جيوش القتال، وخاصة عند فتح الأندلس. وقد كان طارق بن زياد قائد الجيش يومئذ بربريًّا، بالإضافة إلى أن الجيش نفسه فى الفتح الأندلسى كان عبارة عن ١٢٠٠٠٠ مقاتل، لم يكن من بينهم سوى ٥٠٠ فارس عربى.

وهكذا، فلم ينقضِ القرن الأول الهجرى حتى كان الشعب البربرى عربىَّ اللغة والعادات، وهذا محل الدهشة عند المؤرخين.

الفتح الإسلامى لإسبانيا

الحالة السياسية والاجتماعية فى إسبانيا قبل الفتح

يرجع تاريخ شبه الجزيرة الأيبيرية إلى قديم الزمان، فقد ذكرها المؤرخون على عهد القرطاجنيين فى اشتباكهم مع روما، ثم جاء الرومان إلى هذه المنطقة لتكون يومئذ إقليمًا رومانيًا، اتسع للحضارة الرومانية، وانتشرت به الديانة النصرانية والفنون الرومانية، ثم ضعف الوجود الرومانى نتيجة الهجمات التى قامت بها القبائل الجرمانية، وتعرضت إسبانيا لهزات سياسية نتيجة موجات استعمارية، حتى جاء القوط الغربيون إلى شبه الجزيرة، فأقاموا بها دولتهم التى بقيت حتى قضى عليها العرب عام ٩١ هـ (٧١١م).

فإذا ما نظرنا إلى الفترة التى سبقت الفتح العربى فى إسبانيا بحوالى ثلاثين عاما تقريبا، فإننا سنلاحظ أن الحالة العامة كانت تؤذن بالانحلال والسقوط إن عاجلا أو آجلا، ولا سيما فى محيط الأسرة المالكة التى كان يتولى شئونها رجال محصورون فى أسرة معينة عن طريق الانتخاب، وكان رجال الكنيسة والأمراء هم أصحاب الانتخاب، فكان نتيجة لهذا النظام حدوث القلاقل والفتن والدسائس عند موت أحد هؤلاء الملوك وتعيين آخر.

وإذا ما تطرقنا إلى الناحية الاجتماعية، فسنجد أن المجتمع كان يقوم على النظام

الطبقى الفاسد، حيث لا مصلحة عليا ولا روابط ولا قومية، وهكذا كانت الطبقات فى هذا المجتمع يمتاز بعضها عن بعض على النحو التالى:

١ـ **طبقة رجال الكنيسة**: وهذه الطبقة كانت تتوفر على قدر كبير من الأراضى الزراعية المعفاة من المكوس، وكانت تتدخل فى شئون الحكم، وكانت المصلحة الشخصية هى الدافع الأساسى لهذا التدخل.

٢ـ **طبقة النبلاء**: وهم الذين ينحدرون من القوط، ويمتلكون معظم الأراضى الخصبة المعفاة من الضرائب، كما كانوا يتقاسمون المناصب العسكرية ورياسة الشئون الكنسية.

٣ـ **طبقة الأقنان**: وهم المعروفون بـ"عبيد الأرض"، وهؤلاء كانوا يقومون على خدمة أرض كبار الملاك، وهم وعائلاتهم ملك لهؤلاء، بل جزء هام من ثروتهم، فإذا ما انتقلت الأرض من مالك إلى آخر فإن أولئك العبيد ينتقلون بدورهم إلى المالك الجديد، كما أنهم محرومون من كافة حقوق المواطنين، رغم أن عليهم واجبات الخدمة فى فلاحة الأرض لمُلّاكهم وأسيادهم.

٤ـ **طبقة العبيد**: وهؤلاء يمثلون أعدادًا كبيرة فى المجتمع، وقد تكوّنوا من أسرى الحروب، ويخضعون لمبدإ البيع والشراء، وكان عملهم فى الصناعات المختلفة، ولا يختلفون عن سابقيهم فى الحرمان من الحقوق.

٥ـ **طبقة التجار والزُّراع وصغار الملاك**: وهؤلاء كانوا يعانون من أداء الضرائب الباهظة التى أثقلت كاهلهم، تلك الضرائب التى كانت تذهب إلى قصور الحاكمين فى سبيل رغد عيشهم ولهوهم.

٦ـ **طبقة اليهود**: وهؤلاء كانوا يُهيمنون على اقتصاد المجتمع فى كافة المرافق، وقد

أحسَّ الحاكمون بوطأتهم واستغلالهم لموارد الدولة، فكان نصيبهم الاضطهاد من الحكام والتضييق عليهم.

وهكذا نرى أن مجتمعا تسوده تلك النظم، وتنتشر فيه مثل هذه الطبقات، لا بد أن يعمه الفساد، وتنتشر فيه المؤامرات والدسائس. وفعلا لقد اضطربت أمور الدولة، وتربص الطامعون فى الحكم، وكانت آخر هذه الدسائس الانقلاب الذى قام به أحد قواد الجيش واسمه "لذريق" أو "رودريك"، ضد الملك "غيطشة" وتوليه السلطة مكانه، مما أحفظ عليه رجال الأسرة المالكة المخلوعة، وبقيت تتربص بالحاكم الجديد الدوائر، حتى واتتها الفرصة عند فتح العرب لإسبانيا، فانضمت إليهم، وسهَّلتْ لهم الأمور فتيسَّر لهم الفتح.

الأحداث التى مهدت للعرب فتح الأندلس

يتحدث المؤرخون عن عدة أحداث كان لها دخل فى التمهيد للفتح، ولعل أبرز هذه الأحداث حدثيْن لهما الأثر البالغ فى هذا الشأن:

١ـ تذكر المؤرخات الإسلامية أنه وقع خلاف بين حاكم سَبتة يومئذ المسمى "يوليان" أو "جوليان" وبين "رودريك" الحاكم العام لإسبانيا، فقد كان من عادة حكام الولايات الإسبانية أن يبعثوا ببعض أبنائهم وبعض بناتهم إلى القصر الملكى ليتخلقوا بالصفات "الأرستقراطية" الملكية، ولتكون هناك صلة بين النبلاء والحكام، فبعث الكونت "يوليان" بإحدى كريماته واسمها "فلوريدا" إلى قصر "رودريك" فى طُليطلة، لتأخذ بنصيب من التربية الملوكية بين الوصيفات، وكانت تتمتع بقسط وافر من الجمال الفاتن، مما جعل "رودريك" يتعلق بها ويشغف بمحاسنها، وكان أن اعتدى على عفافها غير آبه بحرمة الحكم وشرفه، الأمر الذى استشاط معه "يوليان" غيظًا وحنقًا، ثم وجد فرصته فى الانتقام عن طريق الاتصال بالعرب فى المغرب، حيث حبب إليهم فتح إسبانيا، وقدم لهم المعونات الحربية والبحرية، وفتح عيونهم على نقاط الضعف فى البلاد الإسبانية، مما سهل عليهم عملية الفتح.

٢ـ وتتحدث المؤرِّخات الإسبانية فتقول: إنه كانت هناك معارضة شديدة

ضد "رودريك"، وقد تزعم هذه المعارضة أسرة الملك المخلوع "غيطشة"، وخاصة أبناءه، ولما كان "يوليان" تربطه صلة نسب بأسرة الملك السابق، فقد عملت جبهة المعارضة على الاتصال بيوليان، ليقوم من جانبه بالاتصال بالعرب، وذلك قصدَ إمدادهم بقوة عربية يستطيعون بواسطتها استرجاع ملكهم المفقود، نظير أموال يتفقون عليها مع العرب. ويرى هؤلاء المؤرخون أن العرب قدموا إلى إسبانيا على هذا الأساس، ولكنهم سرعان ما أصبحوا فاتحين مسيطرين على مقادير البلاد.

وأيا كانت هذه الأحداث التى مهدت للعرب فتح إسبانيا، فإننا نرى أنه بالإمكان القول بأن الظروف تكاتفت وأخذ بعضها ببعض لتكون هذه النتيجة فى النهاية، إضافة إلى أنه يمكن كذلك القول بأن "يوليان" شعر بقوة العرب، وخاف على مملكته منهم، فلذلك رأى إقناعهم بتذليل عملية فتح إسبانيا، خاصة بعد حادث ابنته، والانقلاب الذى أصاب أصهاره من "رودريك"، فكانت الدوافع لديه متوفرة وحافزة لما قام به.

كيف تم الغزو الإسلامى؟

عندما تهيأت الظروف المواتية للفتح الإسلامى للأندلس، كان لا بد للقائد موسى بن نصير من أن يستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك فى ذلك، فكان جواب الوليد لموسى بألا يغامر بالجيش الإسلامى فى بحر عظيم الأهوال، ولكن موسى أوضح للخليفة بأن المسافة بين الشاطئين محصورة ومحدودة، فأجابه بأن يكون على جانب كبير من الحذر، فلا يغامر بجيش كبير، بل بفِرَق محددة.

ولقد استجاب موسى لنصيحة الخليفة، فبعث بادئ ذى بدء بسريَّة صغيرة من الفرسان بقيادة "طريف بن مالك"، لجسِّ نبض المواقع الشاطئية للسواحل الجنوبية من شبه الجزيرة، وقام "يوليان" بنقل هذه السرية على سفينة إلى تلك الشواطئ

المقصودة بحيث نزلت فى البقعة التى تعرف حتى الآن بـ "رأس طريف"، وقد عاد طريف بعد غزوه لتلك المنطقة مُحملًا بالغنائم إلى بلاد المغرب.

هكذا وثق موسى بن نصير من الكونت "يوليان"، واطمأن إلى الشواطئ الإسبانية وأحوال أهل البلاد، فجهز جيشا قوامه اثنا عشر ألف مقاتل، بينهم خمسمائة من الفرسان، وأمّر على الجيش قائده "طارق بن زياد" البربرى الأصل، والذى خبر موسى قيادته الحكيمة فى معارك سابقة بالمغرب.

وصل طارق بجيشه عند بروزٍ جبلىّ جنوبى إسبانيا، فيما عرف بعد ذلك ـ وحتى الآن ـ بجبل طارق، حيث عبر منه إلى الجزيرة الخضراء، وكانت الفرصة أمامه سانحة، فقد كان "رودريك" فى شمال إسبانيا يحارب بعض القبائل التى ثارت عليه، ولكن ما إن علم بقدوم العرب حتى بادر بالعودة إلى الجنوب، حيث التقى عند بحيرة "وادى لكه" قرب "شريش" بجيش عُدته أضعاف جيش طارق، قوامه العبيد والأرقَّاء الذين يفتقرون إلى الروح المعنوية، كما كان بهذا الجيش بعض الأعداد من الأسرة المالكة القديمة، وهؤلاء كان ميلهم إلى العرب انتقاما من "رودريك"، لذلك انجلت المعركة فى النهاية عن هزيمته هزيمة نكراء، وذلك فى شهر رمضان من عام ٩٢ هـ (يوليو ٧١١م)، ويقال إن "رودريك" سقط صريعًا فى هذه الموقعة، ولكن الرواية الإسبانية تنفى مصرعه، وتؤكد أنه التقى بموسى وطارق فى معركة أخرى بعد سنتين قُتل خلالها.

ثم واصل طارق زحفه شمالا حتى بلغ العاصمة طُليطلة، مستوليًا فى طريقه على كل من مالقة، وأرشدونة، ومرسية، وقرطبة.

وفى هذه الأثناء طلب موسى من قائده طارق أن يتريث قليلًا، يدفعه إلى هذا الطلب الحذر والحيطة، حتى لا يندفع مغامرا بالجيش، فتنقطع عنه الإمدادات، وحتى يمده بقوات إضافية تعزز من قدرته، وليواجه فتح هذه البلاد الواسعة

الوعرة وهو آمن على الجيش، مطمئن إلى المستقبل، وفعلا تحرك موسى بنفسه بجيش كبير، وعبر المضيق، واتجه شمالا فى طريق غير الطريق الذى سلكه طارق، ففتح إشبيلية وبعض المدن الواقعة غرب إسبانيا، حتى وصل إلى طارق الذى كان فى انتظارٍ على مشارف طليطلة، ثم واصلا الفتح شمالًا حتى بلغا جبال البرانس، وهنا فكر موسى فى عبور هذه الجبال، والاندفاع بالجيش لغزو بلاد غاليا (فرنسا)، أملا فى أن يواصل بعدئذ زحفه إلى أوروبا حتى يتمكن من إسقاط "رومية" وبعدها يصل إلى القسطنطينية، فيفتح عاصمة البيزنطيين التى طالما راودت فكرة الاستيلاء عليها القواد العرب ففشلوا، وليصير البحر المتوسط حينئذ بحيرة إسلامية، بيد أن الخليفة فى دمشق لم يوافق على هذه الآمال، واستدعى موسى وقائده طارقًا ليقدُمَا إليه، فعادا إلى المغرب ومنه إلى الشرق معًا، وخلف موسى ابنه عبد العزيز واليا على الأندلس، الذى فتح الجزء الشرقى من إسبانيا، وبذلك تم الاستيلاء على إسبانيا كلها، إذا ما استثنينا الجزء الشمالى الغربى المسمى "جليقية"، الذى لم يفكر العرب فى فتحه نظرًا لوعورته وشدة برودته، فتركوه لأهله من النصارى أحرارا، ولكن هذه البقعة ـ للأسف ـ كانت هى البؤرة التى اختمرت فيها فكرة "حروب الاسترداد"، حيث تمكن الإسبان منها كمنطلق لطرد العرب نهائيا، بعد أن ظلوا بهذه البلاد ثمانمائة عام.

وهكذا تم فتح الأندلس فى نحو من أربع سنوات، وذلك من سنة ٩١هـ حتى سنة ٩٥هـ (٧١١م ـ ٧١٥م).

عصور الحكم الإسلامي في الأندلس
منذ الفتح وحتى النهاية(*)

العصر	الفترة
١ـ عصر الولاة	٩٥ـ١٣٨هـ/ ٧١٣ـ٧١٧م
٢ـ عصر الأمويين	١٣٨ـ٣٦٦هـ/ ٧٥٥ـ٧٨٩م
٣ـ عصر العامريين	٣٦٦ـ٣٩٩هـ/ ٩٧٦ـ١٠٠٢م
٤ـ عصر ملوك الطوائف	٤٢٢ـ٤٨٤هـ/ ١٠٣١ـ١٠٩١م
٥ـ عصر المرابطين	٤٨٤ـ٥٢٤هـ/ ١٠٩١ـ١١٣٠م
٦ـ عصر الموحدين	٥٢٤ـ٦٦٨هـ/ ١١٣٠ـ١٢٦٩م
٧ـ عصر بني الأحمر	٦٣٠ـ٨٩٧هـ/ ١٢٣٣ـ١٤٩٢م

(*) سقطت غرناطة بالتسليم في ٢ يناير ١٤٩٢م.

عبور جبال البرانس
وزحف الجيش الإسلامى إلى بلاد غاليا

ذكرنا أن موسى بن نصير فكر فى أن يعبر جبال البرانس، وهى الحدود الطبيعية الفاصلة بين إسبانيا وبلاد غاليا (فرنسا)، بعد أن أتم فتح شبه الجزيرة الأيبيرية، ومنها يسير شرقا مخترقا الأقطار الأوروبية واحدا بعد الآخر حتى يصل إلى القسطنطينية فيفتحها، ومنها حتى مقر الخلافة الأموية (دمشق) فيتحقق له بذلك أمل عظيم ويصبح الحلم حقيقة، ولكن عرفنا أن الخليفة عارض هذه الفكرة، وخاف على الجيش الإسلامى أن يصير إلى متاهات فى بلاد لا عهد له بها من قبل.

ثم كان أن ولى أمر الأندلس "السمح بن مالك الخولانى" ما بين عام ١٠٠- ١٠٣هـ (٧١٨ - ٧٢١م)، وكان من خيرة القواد المسلمين الذين تولوا أمر الأندلس، وما إن تقلد الأمور حتى دبت فى الجيش روح القتال، وشب فيهم الحماس الذى كان قد ضعف عقب استدعاء الخليفة لموسى وطارق.

حاول السمح تحقيق فكرة "موسى بن نصير"، فغزا ولاية "سبتمانية"، وهى منطقة ساحلية تطل على البحر الأبيض المتوسط جنوب فرنسا، تتبعها سبع مدن، وعاصمتها "أربونة"، وكانت ضمن أملاك القوط وتحت سيادتهم، ففتحها "السمح"، وعبر جبال البرانس، حيث وطئ أرض غاليا (فرنسا)، متجها نحو الغرب حيث مجرى نهر الجارون، واستولى فى طريقه على المدن التى صادفها حتى

وصل إلى طولوشة "تولوز" فحاصرها وفتحها، بيد أن دوق مقاطعة أكيتانيا سارع إلى إنقاذها بجيش حاصر جيش "السمح" الذى هُزم، كما قُتل السمح نفسه، وارتدت البقية من الجيش الإسلامى بقيادة أحد القواد وهو "عبد الرحمن الغافقى" إلى أربوت، التى أضحت نقطة الانطلاق العربى لغزو فرنسا، وعليه فلم يتحقق للسمح سوى الاستيلاء على إقليم "سبتمانية".

ثم حدث أن تولى إمارة إسبانيا بعدئذ القائد "عنبسة بن سحيم الكلبي" ما بين عامى ١٠٣ ـ ١٠٧هـ (٧٢١ ـ ٧٢٥م)، وكان يعرف بطموحه الحربى وحماسه، فتابع خطوات الغزو، وسار على الساحل حتى بلغ نهر الرون، وعليه فقد تمكن من الاستيلاء على إقليم "بروفانس"، وبعدها اتجه شمالا فاستولى على "ليون"، واستمر مندفعا فى زحفه حتى بلغ "أوتان" فى أعلى نهر الرون، ولكن للأسف لم يفكر عنبسة فى تأمين خطوط العودة، الأمر الذى أعطى الفرصة للأعداء لكى يقطعوا عليه خط الرجعة، حيث هزموه وقتلوه، وعادت فلول جيشه قاصدة "أربونة" القاعدة الحربية.

اشتباك العرب مع دولة الفرنجة

لقد تولى أمر الأندلس بعدئذ القائد "عبد الرحمن الغافقي" من سنة ١١١ ـ ١١٤هـ (٧٢٩ ـ ٧٣٢م) الذى تمكن من الرجوع بالجيش سابقا بعد السمح بن مالك فى موقعة طولوشة عام ١٠٣هـ (٧٢١م)، وكان عبد الرحمن هذا قائدا قوى الشكيمة، حسن القيادة، وقد بلغ به الحزن درجة عظيمة عقب تلك الموقعة، فعزم على الثأر من النصارى، وأعلن الجهاد فى سبيل الله فى كل من المغرب والأندلس، فاستجابت له جموع غفيرة من المتطوعين، وبذلك توفر على جيش عظيم عبر به جبال "البرنيه" إلى "أربونة"، ثم إلى نهر الجارون محاذيا له، حتى بلغ "بوردو" عند مصب النهر، ثم انعطف شمالا حتى وصل إلى السهل الواقع شمال نهر اللوار وجنوب نهر الجارون، حيث التقى الدوق "يودو الأكيتانى"، فعجز هذا الأخير عن

الصمود للجيش الإسلامى، واضطر إلى الاستنجاد بدولة الفرنجة المجاورة، وكانت دولة كبيرة يحكمها الوزراء والقواد، أما الملوك فكانوا صوريين، وكان أمير القصر يومئذ قائدا يدعى "شارل مارتل"، قد جمع فى يده مقاليد السلطة، فلما استغاث به دوق أكيتانيا بادر إلى نجدته، حيث رأى بثاقب فكره أن استيلاء العرب على إقليم أكيتانيا سيهدد مملكة الفرنجة المجاورة باستيلاء العرب عليها من بعد.

معركة تور (بلاط الشهداء)

سميت المعركة فى الرواية الأوروبية بمعركة "تور" أو "بواتييه" نسبة إلى البقعة التى حدثت فيها، وهى على مسيرة حوالى سبعين كيلومترا من باريس جنوبى نهر السين، وقد التقى الفريقان فى معركة من أقسى المعارك التاريخية المشهورة، فقد استمرت ثلاثة أيام، وقيل: بل استمرت أسبوعا كاملا، أبلى فيها الفريقان بلاء يقل نظيره. وكان الجيش الأوروبى أضعاف الجيش العربى، وكان قائده المسمى "يودو" من القواد ذوى الخدع الحربية، فقد كان يدرك نقطة ضعف عرفها عن العرب، فأراد أن يستغلها، وهى أن الجيش العربى مثقل بالغنائم، ويحرص على أن يضعها مؤخرة الجيش فى حراسة حامية منه، وهكذا قام "يودو" بحركة التفاف من خلف جند العرب، وهاجم مؤخرتهم بفرقة من جيشه، فاختل نظام الجيش العربى وتراجع بعضهم لإنقاذ الغنائم، فى الوقت الذى بقى البعض يقاتل، وحينئذ بادر القائد الغافقى إلى إنقاذ الجيش، ولكنه أصيب بسهم قاتل أودى بحياته، وعليه أضحى جيش المسلمين بدون قيادة، فى الوقت الذى هاجم جيش النصارى العرب من كل جانب، فاستشهد منهم العدد الجم، وتراجعت فلوله إلى الوراء بعد أن أصابه الارتباك الشديد، ولما أصبح الصباح لم يجد "شارل مارتل" من يقاتله، فاكتفى بهذا النصر، ولم يحاول متابعة بقايا الجيش العربى خشيةً أن يكون العرب قد دبروا له كمينا، وعاد إلى بلاده.

أسباب هزيمة العرب

تعود هزيمة الجيش الإسلامى فى هذه المعركة (بلاط الشهداء) إلى عدة أسباب:

١ـ كان عدد الجيش الفرنجى يفوق عدد الجيش العربى عدة وعتادا وعددا، بحيث كان يتألف من أهل غاليا (فرنسا) ومقاطعة أكيتانيا المجاورة، ودولة الفرنجة (الجرمان)، بخلاف المتطوعين والمرتزقة الذين تدفقوا على منطقة القتال.

٢ـ القتال الذى دار بين طرفى النزاع إنما كان بين عرب من سكان الصحارى، وبين سكان أوروبا وغاباتها، حيث تختلف البيئة والمناخ؛ فالعرب آتون من صحارى حارة، لباسهم واسع فضفاض، بينما الأوروبيون يرتدون اللباس الضيق السميك، والذى يساعدهم على القتال فى خفة وسرعة دون عائق.

٣ـ اختلاف نوعية السلاح، فبينما كان العرب يقتلون بالسيف المعتاد، وأحيانا بالقوس، تساندهم فرقة من الخيالة يعتمدون عليها كثيرا، إذا بالفرنجة يستعملون البلطة الثقيلة فى صفوف متراصة، وأكثرهم مشاة، على حين كان العرب يعتمدون على الكرّ والفرّ، وكما كان لهم تكتيك خاص فى تقسيم الجيش يختلف عن تكتيك الآخرين.

٤ـ عدم تنبه العرب المقاتلين إلى حركة القائد "يودو" التى قام بها خلف المسلمين، لمشاغلتهم عن الغنائم التى أثقلوا بها أنفسهم، وقد كانوا فى حِلٍّ من هذا القيد الذى كان سببا مباشرا فى الهزيمة.

نتائج معركة تور

ينظر المؤرخون إلى هذه المعركة على أنها من المعارك الفاصلة فى التاريخ العام من زاوية الأوروبيين، حيث نتج عنها تغيير فى مجرى التاريخ إلى حد بعيد، فقد انبرى كثير من الباحثين لهذه الموقعة، فجيبون يقول: "لو انتصر العرب فى تور أو بواتييه

لكان القرآن يتلى ويفسر فى أكسفورد وكمبردج"، كما أن "رينو" قد وضع كتابا فى القرن التاسع عشر عن غارات العرب فى أوروبا، وفيه يذكر "رينو" بأن تلك المعركة فاصلة، وهذا الكتاب هو الذى استفاد منه الأمير شكيب أرسلان فى تأليف كتابه "غزوات العرب فى أوروبا".

يضاف إلى ذلك أن ولاة الأندلس لم يفكر أحد منهم بعد ذلك فى اجتياح أوروبا، أو أن يواصل الفتوحات بعد نقطة الانتكاس هذه، وعليه فقد تلاشى حلم الوالى موسى بن نصير ومن أتى بعده من القواد فى أن يصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية إذا ما وصلت الفتوحات إلى العاصمة الأموية (دمشق).

ولا ننسى أن الأحداث التى مرت بالخلافة فى الشرق قد أثرت بدورها فى هذه المنطقة من الغرب الإسلامى، فالروم أخذوا ينشطون على حدود الشام، كما أن الدولة العباسية قد بدأت تزحف نحو أطراف الدولة الأموية وتثير القلاقل، وأدركت أوروبا بدورها فى خضم هذه الأجواء ما يتهدد المنطقة من أخطار إسلامية، الأمر الذى أضحت فيه جبهة المسلمين فى هذا الجزء من الغرب الإسلامى موكولة إلى إمكانيات ولاة الأندلس، يضاف إلى هذا أن الروح العسكرية والمعنوية قد بدأت تخبو لدى الأندلسيين، فانتهز "شارل مارتل" هذه الفرص، فطارد العرب إلى حدود "سبتمانية"، واقتطع منهم إقليم "بروفانس"، كما أن شارلمان بعدئذ انتزع منهم "سبتمانية" بالإضافة إلى الثغور الإسلامية التى احتلها العرب من قبل، وبذلك فَقَدَ المسلمون كل هذه المناطق فى جنوب وغرب بلاد غاليا، وارتدوا إلى ما وراء جبال البرانس، قاصرين جهودهم على المحافظة على إسبانيا لا غير.

الحالة العامة فى إسبانيا كإقليم من أقاليم الخلافة

إن عهد الولاة فى إسبانيا يبدأ منذ تمام الفتح عام ٩٥هـ (٧١٤م)، وحتى تأسيس

الدولة الأموية فى الأندلس سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م)؛ أى ما يقرب من ثلاثة وأربعين عامًا، تقلب خلالها على الحكم واحد وعشرون واليًا؛ أى بمعدل والٍ كل سنتين تقريبًا، فكانت فترة اضطراب وعدم استقرار، أو بعبارة أخرى: فترة انتقال من الحكم القوطى المتداعى إلى الحكم الأموى الأندلسى المستقر الذى دام حوالى ثلاثمائة عام، فقد انتهى حكم هؤلاء الأمويين فى الأندلس عام ٤٢٢هـ.

فهذه الفترة من عهد الولاة تتميز بأحداث هامة، لعل أبرزها على الصعيد الخارجى هو محاولة العرب فتح أوروبا وإخفاقهم فى ذلك فى النهاية. أما على الصعيد الداخلى، فإن إسبانيا قد أضحت جزءا من إمارة المغرب، وولاة المغرب هم الذين فتحوها، وكانت إمارة المغرب نفسها تتبع الخلافة الأموية فى دمشق تبعية سياسية وروحية، وإن كان والى مصر يومئذ عبد العزيز بن مروان هو الذى عين موسى بن نصير واليا على إفريقية.

ولقد أخذت منطقة المغرب تأخذ استقلالها شيئًا فشيئًا بمرور الأيام، كما أن إسبانيا بدأت تستقل بشخصيتها وتنال استقلالها الإدارى، ففى أواخر عهد الإمارة الأموية بدمشق كان الأندلسيون يولون عليهم من يشاءون، وما على الخليفة إلا أن يوافق على إرادتهم، ويُمضى رغبتهم، ويقوم الوالى بتعيين أصحاب المناصب الرئيسية كصاحب الشرطة، وقاضى القضاة، وصاحب الخراج، والقائم على بيت المال وغيرهم، وهو ما جرى عليه الحال فى نظام الولايات الإسلامية.

أما من حيث الجيش فقد كان يتألف فى إسبانيا من العرب والبربر، بيد أنْ العرب اختصوا أنفسهم بالمناصب الرئيسية فى القيادة، كما امتازوا بالمناطق الخصبة بالأندلس، حيث الخيرات الوفيرة، مثل المنطقة الشرقية، والجنوبية، فى حين تركوا للبربر المناطق الوسطى والشمالية الوعرة والباردة، تلك المناطق المتاخمة للأعداء من النصارى، الأمر الذى كان له رد فعل فى نشوب الخلاف بين كل من العرب

والبربر، وذلك منذ استقرار المسلمين فى الأندلس وحتى قيام الدولة الأموية الأندلسية.

ونلاحظ أن حكم الولاة فى إسبانيا قد امتاز بأنهم أخذوا على عاتقهم أن يهدّئوا الأحوال فى البلاد قدر الإمكان، فقد منحوا الأسرة المالكة القديمة الأراضى، كما أعطوا قائد، وقّع مع العرب صلحًا شريفًا، إقليم "مرسية"، الذى عرف بإقليم تدمير نسبة إلى هذا القائد، وأما حاكم سبتة "يوليان" فكان نصيبه أن أعيد إلى حكمها تحت إشرافهم، وهكذا ضمن العرب ولاء هؤلاء المقهورين، وعدم إثارة أية فتن أو قلاقل من جانبهم، سياسةً من العرب، أو استمالةً للقلوب من حولهم.

طبقات المجتمع وسياسة الولاة

لقد حدث تغيير جذرى فى هذا المجتمع بعد الفتح العربى، حيث إن النبلاء لم يعد لهم وجود فى البلاد، واضطر من بقى منهم إلى الفرار نحو الشمال الغربى من إسبانيا بمقاطعة أستوريا، واستولى الفاتحون على ممتلكاتهم، أما رجال الدين فقد تقلص نفوذهم وسلطانهم، حيث أضحى الدين الإسلامى الدين الغالب، بالإضافة إلى أن كثيرا من أهل البلاد من الإسبان قد اعتنقوا الدين الجديد عن طواعية واختيار، وبذلك فقدت الكنيسة هيمنتها.

أما طبقة العبيد التى كانت مسلوبة من كل الحقوق، فقد غمرها جو الحرية الإسلامية، فتسابقت إلى الدخول فى الإسلام، وبذلك تحرروا، وحصلوا على حقوقهم الإنسانية، وارتقت أحوالهم من الذل والحرمان إلى الحرية والعمل لأنفسهم.

وأما طبقة رقيق الأرض فقد حازوا بعض الأراضى، حيث أصبحوا يفلحونها لصالحهم، وقد نالوا حقوقهم المهضومة بعد أدائهم واجبات الأرض، وهى النسبة المقررة كخراج عليها.

وعليه، فقد أثمرت جهود الفتح العربى ثمرات طيبة فى محيط هذا المجتمع الإسبانى، بنشر العدالة والمساواة فى الحقوق والواجبات بين المواطنين، سواء منهم من اعتنقوا الإسلام أو من آثروا البقاء على عقيدتهم.

ونأتى إلى طبقة الفاتحين المسلمين لنجد النزاع يجد طريقه إليهم نتيجة الاشتغال بالسياسة، وتجلى هذا بين العرب والبربر، فتفرقت كلمتهم وانقسموا إلى طوائف وأحزاب، فكان النزاع يصل بين الفريقين أحيانا إلى حد الصدام.

هذا ويسوق "المقري" صاحب (نفح الطيب) نصًا تاريخيًا عن مؤرخ سابق له يدعى "الحجاري" يذكر فيه ما معناه: أن "شارل مارتل" خاطب قومه عندما بثوه شكواهم من أن العرب قد وقفوا على أبواب بلادهم قائلاً: "لا تواجهوهم فى إقبال أمرهم، فإن لهم إرادة قوية، ونية صادقة، وحصانة من أن يهزموا، حتى تهدأ أمورهم، ويأخذوا فى التنافس فى الرياسة والمُلْك والمال، وعند ذلك تتفرق كلمتهم، ويضعف أمرهم، فتتمكنون منهم بأيسر مجهود". ويعقب "المقرى" على ذلك بقوله: "فكان والله ذلك".

وهكذا سارت الأمور بالأندلس على النحو الذى تنبأ به "شارك مارتل"، فقد نشبت الفتن بين العرب والبربر، ثم بين عرب الشام والبلديين بعدئذ، ثم بين العرب من مضر والعرب اليمنية، إلى غير ذلك من قلاقل واضطرابات فقد معها الأندلسيون عنصر الاستقرار السياسى.

الخلاف بين العرب والبربر

لقد نشب الخلاف بين العرب والبربر عقب استقرار الفتح الإسلامى للأندلس نتيجة استئثار العرب بالمناصب ذات الامتياز، وتملك الأراضى ذات الخيرات الوفيرة كما قدَّمنا، إضافة إلى أن البربر فى إسبانيا قد ترامى إلى أسماعهم ذلك الانتصار الذى حققه البربر فى شمال إفريقية فى نزاعهم مع العرب ، فحقد بربر

الأندلس على إخوانهم العرب الذى يساكنونهم إسبانيا وثاروا عليهم ثورة عارمة، مما اضطر الوالى "عبد الملك بن قطن الفهرى" إلى أن يستنجد بجيش عربى كان محصورا فى سبتة من طرف البربر، واشترط على هذا الجيش أن يعود من حيث أتى بعد الانتصار، ولما كان هؤلاء فى حصارهم لا يملكون من الأمر شيئا، فقد رضخوا لهذا الشرط من الوالى، الذى أخذ بعضا من خيرة رجالهم كرهينة لتنفيذ شرط عودتهم، وفعلا عبر الجيشُ مضيق جبل طارق إلى الأندلس، وهناك انضم الجيشان العربيان وقاتلا جنبا إلى جنب جموعَ البربر الذين هُزموا هزيمة نكراء، ولم تقم لهم قائمة من بعد ذلك.

الخلاف بين العرب أنفسهم

لم يَفِ الجيش العربى الشامى الذى قدم من سبتة لمعاونة عرب الأندلس بالشروط المعقودة، إذ رفض قائده "بلج بن بشر القشيري" العودة بعد أن رأوا ما تتوفر عليه الأندلس من خيرات، وكانوا قد قاسوا من بربر المغرب ما قضى على معظمهم، ولما كانوا واثقين من قوتهم وثباتهم فقد هجموا على الوالى "عبد الملك"، واضطروه إلى التخلى عن سلطانه، وولوا مكانه قائدهم "بلج" ليكون أميرا على الأندلس، ثم قتلوه، الأمر الذى أثار عرب الأندلس، فنهضوا ثائرين، حيث اشتبك الفريقان فى حرب كاد يتسع نطاقها فى البلاد، فاضطر الخليفة فى دمشق إلى أن يولى على الأندلس رجلا عُرف بالبأس والمكانة لدى الأندلسيين، وهو الشاعر "أبو الخطار بن ضرار الكلبي" من عنصر اليمنيين، الذى انتهج منهج السياسة تجاه هذه الأحداث المحلية، فأراد أولا أن يحل مشكلة الشاميين، فأنزلهم مقسمين على كُوَر الأندلس، وقسمهم حسب أجنادهم فى الشام، فأنزل أهل جند الشام (دمشق) كورة "البيرة" وسماها دمشق، وأنزل أهل جند حمص كورة إشبيلية، وسماها "حمص"، وأهل جند قنسرين كورة جيان فى جنوب الأندلس، وسماها "قنسرين"، وأنزل أهل جند الأردن كورة رية، وسماها "الأردن"، وأنزل أهل جند فلسطين

شذونة فى أقصى الجنوب، وسماها "فلسطين"، أما أهل مصر فأنزلهم الجنوب الشرقى من الأندلس فى كورة تدمير، وسماها "مصر"(*).

وبذلك قضى على الفوضى التى كانت سائدة بين القوم، ليتفرغ بعدئذ لمهام الحكم فى جو من الاستقرار والأمن.

لكن النفوس كانت لا تزال متأثرة بالحوادث التاريخية بين المضريين واليمنيين، وقد اندلعت شرارة النزاع بين الفريقين بالأندلس إثر حادث بسيط، كان يمكن أن يمر عاديا لولا أن الأمور تحولت إلى حالة من الاشتعال، فقد اختلف مضرى ويمنى فى مسألة ما، فلجأ اليمنى إلى "أبى الخطار" فقضى له، فاعتبر المضرى ذلك تعصبًا، حيث إن أبا الخطار عربى يمنى، ومن ثَم شكا المضرى إلى زعيم المضرية المعروف "الصميل بن حاتم بن ذى الجوشن"، فقصد هذا إلى الأمير ليتحدث إليه فى الأمر، فوقع بينهما نقاش أهين فيه "الصميل" بانحلال عمامته، فأشار عليه أحد الحراس عند خروجه بقوله: "أصلح عمامتك أبا الجوشن"، فأجابه: "إن كان لى قوم فسيقيمونها"، فكان هذا وعيدا بالحرب، وقد كان، فقد نشبت الحرب بين المضرية بقيادة "الصميل"، وبين اليمنية بقيادة "أبى الخطار" واشتبك الفريقان فى معركة كبرى على نهر الوادى الكبير عند قرية "شقندة" غربى قرطبة، وتبادل الطرفان الانتصارات، وارتد الصميل إلى مدينة سرقسطة الحصينة، فحاصره اليمنيون، ولكن قوة مضرية هبت لفك الحصار، وكانت هذه القوة تزداد أعدادها بمن كان ينضم إليهم وهى فى طريقها من أهل المدن، وكان من بين هؤلاء جمهرة من موالى بنى أمية يبلغ عددهم حوالى الثلاثمائة، وكان هؤلاء الموالى عبارة عن رسل خير إلى طرفى النزاع، ليفاوضوهم فى شأن شاب طريد من أعقاب بنى أمية، وهو "عبد الرحمن الداخل"، رجاء أن يقبل أحد المتنازعين لجوءه، وليصير من رجاله مستقبلا.

(*) المجمل فى تاريخ الأندلس، للأستاذ عبد الحميد العبادى، ص٥٨.

الباب الثانى

عصر بنى امية الأندلسيين

١٣٨ ـ ٤٢٢ هـ/ ٧٥٥ ـ ١٠٣١ م

عبد الرحمن الداخل
زعيم بنى أمية الأندلسيين
(١٣٨ ــ ١٧٣ هـ/ ٧٧٥ ــ ٧٨٩ م)

نَسَبُهُ

هو أبو المطرف عبد الرحمن بن معاوية بن الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم (عاشر خلفاء بنى أمية بالشام).

تأسيسه للدولة الأموية فى الأندلس

ما إن سقطت الدولة الأموية فى المشرق، حتى بادر العباسيون بتعقب بنى أمية فى كل مكان، فكانوا يبعثون فى أثرهم العيون للقبض على من تبقى منهم، حتى تمنى هؤلاء الفارون بطن الأرض بدلاً من ظهرها، وقد بذل الأمير عبد الله بن على العباس الملقب بـ"السفاح" قصارى جهده ـ وكان ولى أمر الشام ـ فى التنكيل بهم، حتى إنه أصدر وعدا بالأمان لمن يسلم نفسه منهم، ولكنه كان يريد الظفر بهم ليذيقهم سوء المصير، فلما تيقن عبد الرحمن أن السفاح قضى على مجموعة من بنى أمية حين دعاهم إلى وليمة خاصة، فرّ ناجيا بنفسه، متنقلا من بلد إلى بلد، متجها نحو مصر فالشمال الإفريقى، حتى استقر به المقام عند أخواله من قبيلة "نفزة" البربرية.

ولقد ترامى إلى مسامعه ما عليه الحال فى الأندلس، ففكر فى أن يستعين ببنى أمية هناك لإقامة دولة الأمويين بإسبانيا، فبعث إلى هؤلاء الموالى يطلب إليهم مساعدته، والوقوف إلى جانبه ليكون واليا على الأندلس، ولعل هذه المراسلة كانت سببًا فى أن هؤلاء الموالى قد انضموا إلى القوات التى فكت الحصار عن "الصميل" وقومه فى "سرقسطة" حتى تواتيهم فرصة سانحة لاستعادة مجدهم المفقود.

إن حياة عبد الرحمن الداخل"لتعتبر قصة فريدة من نوعها فى تاريخ الشباب الطموح ذى النظرة البعيدة للمستقبل، فبعد أن قاسى من الأهوال ما قاسى حتى وصل إلى المغرب، نراه يتطلع ـ بعد تلك الرحلة المضنية ـ إلى القمة".

وقد تمكن بسياسته ونبوغه من أن يؤسس دولة فى بلاد تتنازعها الأهواء، وتتحكم فيها الحزبية والعصبية، وكان أن التف حوله ثلاثمائة من موالى الأمويين انتصر بهم على المضريين واليمنيين والبربر، وأقام دولة وليدة تصدت ـ بعد القضاء على هذه الفوضى ـ لدولتين خطيرتين، وهما: دولة العباسيين فى المشرق، ودولة "شارلمان" فى أوروبا، ولكن النصر كان حليفه، فقد انتصر فى النهاية على هاتين الدولتين الأمر الذى يجعلنا نقف مشدوهين أمام هذه المعجزة، وتلك الشخصية الفذة فى التاريخ.

كيف مهد الموالى لقدوم عبد الرحمن؟

عرفنا أن "الصميل" كان محصورًا فى سرقسطة يائسًا من الموقف، فأراد هؤلاء الموالى أن يستفيدوا من هذه الفرصة مع "الصميل"، فربما يعينهم بعد فك الحصار على تحقيق غايتهم فى استقبال سليل بنى أمية الشاب عبد الرحمن، وعليه فقد غادروا قرطبة صحبةَ قوة مضرية لفك هذا الحصار، وقد انضم إليهم أثناء مسيرتهم عدد لا بأس به من بلاد الأندلس، وهكذا حتى بلغوا مشارف سرقسطة، وهناك بعثوا إليه برسالة مكتوبة على قطع من الأحجار، يحملها رسول خاص، وفيها أن النجدة

قريبة منه، وتمكن الرسول من إلقاء تلك الأحجار الصغيرة إلى داخل الحصن، وقد وصلت الرسالة إلى الصميل، ولما شعر اليمنيون بتلك النجدة سارعوا إلى فك الحصار، وبذلك خرج الصميل، واستقبل أولئك الموالى بالترحاب ووزع عليهم الأعطيات، وغادر بصحبتهم الموقع قاصدا قرطبة، وما إن بلغوها حتى عرضوا عليه مسألة عبد الرحمن، وقدومه، تاركين له الخيار فى هذا، فإن شاء وافقهم فجاء عبد الرحمن وإن شاء رفض، ولكن الصميل خشى من مغبة هذا الأمر، وقال لهم: "إنه لو جاء عبد الرحمن إلى الأندلس فسوف تصبحون أقزاما إلى جانبه"، وأردف قائلا: "إنه من قوم لو بال أحدهم لغرقنا فى بحر بوله"!!

وهكذا كان الصميل يعبّر عن وجهة نظره، حيث المطامع الشخصية والأهواء المتباينة، إلا أن الموالى الأمويين لم يروا بُدًّا من اللجوء إلى اليمنيين بعد أن يئسوا من المضريين، فاستمالوهم إلى جانبهم، ووافقهم هؤلاء أملا فى أن يأخذوا بثأرهم لمن قتل منهم فى موقعة سابقة، وتظاهروا بالقبول، وفعلا قدم عبد الرحمن بعد أن أسرع الموالى فى إبلاغه بانضمام اليمنيين إليهم، فعبر المضيق، ونزل فى "طرش"، معقل الموالى بالأندلس، وبدأ يعد للزحف على البلاد، منتهزًا فرصة غياب كل من "الصميل"، وكذا الوالى يومئذ "يوسف بن عبد الرحمن الفهري" فى شمال البلاد لإخماد فتنة هناك، وسار بجموعه قاصدًا قرطبة، بيد أن يوسف الفهرى بلغه الخبر، فعاد مسرعا وصحبه الصميل، وكان عبد الرحمن قد قويت شوكته بمن حوله من الموالى والأمويين.

معركة المصارة

لقد حدثت تلك المعركة فى يوم الوقفة من عيد الأضحى عام ١٣٨هـ (٧٥٥م) حيث وقف الجيشان وبينهما نهر الوادى الكبير عند قرية "المصارة"، وبعث عبد الرحمن إلى خصميْه (يوسف والصميل) وعرض عليهما الدخول فى مفاوضات بدلا من سفك الدماء، خاصة أن الوقت ينهى عن القتال لكونه أيام العيد، واشترط عبد الرحمن أن يمكناه من اجتياز النهر هو وجيشه، فوافق الخصمان بحسن نية منهما، وأرسلا إليه ما يحتاجه جيشه من مؤن وعتاد، وبذلك تمكن من عبور النهر وما إن عبر النهر، حتى كشف عبد الرحمن عن نيته، وجاهر بأنه لا مفاوضة إلا على أساس أن يتولى تأسيس دولة أموية فى الأندلس، فهو سليل بنى أمية فى المشرق، وصاحب الحق الشرعى فى إمارة الأندلس، الأمر الذى كان يعنى الصدام بين الطرفين، وهذا ما كان، فقد التقى الجيشان، وأحس عبد الرحمن بما يتهامس به جنده، ولما استفسر عن ذلك علم أنهم يقولون إنه شاب حدث، ولم يسبق له أن خاض حربًا، ويخشون إذا حمى وطيس المعركة أن يفر هاربا على ظهر جواده السريع ويتخلى عنهم، فيُعمل فيهم الأعداء سيوفهم ويفنوهم. فما كان من عبد الرحمن إلا أن نظر فى الفرسان، حيث وقع بصره على فرس ضعيف، فطلب من الفارس أن يتخلى عنه له، وأعطاه فرسه بديلا عنه، مُعلنًا أنه سيثبت على فرسه فى الميدان مهما كانت الظروف. ودارت المعركة على أشدها، وتمخضت عن انتصار عبد الرحمن وجيشه، وولى الصميل ويوسف الأدبار فرارا من القتل.

ثم بادر عبد الرحمن فقصد "قرطبة"، حيث دخلها منتصرا، وتقلد أمور الإمارة فى شهر ذى الحجة عام ١٣٨هـ ، وأعلن قيام الدولة الأموية الأندلسية. ومكث عبد الرحمن أميرا من بعدُ طيلة أربعة وثلاثين عاما، أنفق معظمها فى الجهاد ومقارعة الخصوم وتنظيم أمور الدولة، حتى استقرت الأحوال، وانتظمت الأمور، وكان عمره يومئذ لا يتجاوز الحادية والعشرين.

ولقد واجه عبد الرحمن العداوة بعدئذ فى أكثر من مكان، حيث أحاطه خصومه من كل ناحية، فكان عليه أن يظفر بكل من يوسف والصميل أولا، واللذين لم يستسلما لتلك الهزيمة، فقد عاودا الكَرَّة أملا فى الاستيلاء على قرطبة العاصمة، ولكن لم يكن حظهما هذه المرة بأقل مما مضى، بل إنهما مُنيا بهزيمة ساحقة وأُسِرا، ثم أطلق سراحهما، فرجعا إلى المخاصمة مرة ثالثة، فهزما، وصُرع يوسف عام ١٤٢هـ (٧٥٩م)، وقُبض على الصميل الذى زج به فى السجن، ومات فيه أخيرا.

مشاكل عبد الرحمن الخارجية

تتمثل مشاكل عبد الرحمن الداخل الخارجية فى أنه واجه خطرين عظيمين، أولهما: دولة العباسيين فى المشرق، وثانيهما: دولة الإمبراطور "شارلمان" فى أوروبا، وكلتهما دولتان قويتان يحسب لهما حسابهما، وكان هدف كل من "أبى جعفر المنصور" بفكره ودهائه وقوته، و"شارلمان" ملك الفرنجة ذى البطش والسياسة.. أن يقضيا قضاء مُبرمًا على عبد الرحمن ودولته الناشئة بالأندلس.

وبدأ الصراع بين أبى جعفر المنصور وعبد الرحمن فى صورة الحملة التى قادها العلاء بن مغيث عام ١٤٦هـ (٧٦٣م)، وهو أحد الولاة على إفريقية من قِبَل أبى جعفر المنصور، والذى أخذ على عاتقه القضاء على عبد الرحمن، لتصبح الأندلس بعدئذ ولاية عباسية، كما كانت من قبل ولاية تخضع لولاية الأمويين فى القيروان بإفريقية. وقد ساعد العلاء على إنجاح مهمته هذه ما كان سائدا فى

الأندلس من سخط كل من اليمنيين والقيسيين على عبد الرحمن، فانتهز العلاء فرصة سانحة، تمثلت فى ثورة زعيم القيسيين يومئذ بالأندلس، وهو هشام بن عبد ربه الفهرى، ضد عبد الرحمن، حيث أعلن العصيان فى طليطلة، ودعا للعباسيين، ولكن عبد الرحمن بادر إلى إخماد تلك الفتنة وقضى عليها نهائيا، وقبض على هشام وصلبه، وبذلك تفرق أصحابه.

وما كاد عبد الرحمن يستأصل شأفة هشام هذا، حتى كان العلاء قد عبر البحر، ونزل بإقليم باجة بالأندلس، وتحت إمرته حوالى سبعة آلاف مقاتل، حيث رفع العلم الأسود شعار العباسيين داعيا لأبى جعفر المنصور، منتهزًا فرصة العرب الناقمين على عبد الرحمن، والذين سارعوا بالانضواء تحت لوائه، الأمر الذى لم ير معه عبد الرحمن بُدًّا من أن يعتصم بمدينة قرمونة، فحاصرها العلاء قرابة شهرين، ولما يئس عبد الرحمن من فك هذا الحصار جمع قومه، وأمرهم بإيقاد نار عظيمة، ألقيت فيها أجفان سيوف جيشه، وقال لأصحابه حينئذ: "أخرجوا معى خروج من لا يحدث نفسه بالرجوع"، ولعله استوحى هذه الفكرة من القائد الأول طارق بن زياد، عندما أمر بإحراق السفن أمام صخرة الجبل، وقال قولته المشهورة: "العدو من أمامكم والبحر من خلفكم..."، وهكذا انقضَّ أصحاب عبد الرحمن ـ وكانوا سبعمائة لا أكثر ـ على محاصريهم، وأعملوا فيهم سيوفهم فمزقوهم إربًا، ولم يكتف عبد الرحمن بهذا الانتصار الساحق، بل فكر فى أن يتهكم على الخليفة أبى جعفر المنصور، حيث أشار بأن تقطع آذان القتلى، وأن ترفق بكل أذن بطاقة باسم صاحبها، وأن يلف كل هذا مع رأس العلاء ـ وكان قد صُرع فى المعركة ـ فى العلم الأسود، وأن يرسل كل هذا إلى المنصور فى مكة، حيث كان يؤدى مناسك الحج، وهكذا وضع السفط قبالة خيمته، ولما أبصر ما اشتمل عليه استشاط غيظا، وكتم حنقه، وأبدى فى الوقت نفسه إعجابه بخصمه، وامتدح شجاعته، وقال قولته

المشهورة: "الحمد لله الذى جعل بيننا وبين هذا الشيطان بحرا" وخلع عليه لقب "صقر قريش".

وما إن فرغ عبد الرحمن من القضاء على هذه الحملة حتى بادر بالعودة إلى قرطبة العاصمة، حيث أخذ يعمل على تأسيس دولة أموية مستقلة، يحيى بها أمجاد أسلافه الأمويين بالمشرق، وجعل مُلْكَها وراثيا، ومنع الدعاء للخليفة العباسى من على المنابر، بيد أنه رفض لقب "الخليفة"، إيمانًا منه بأن لهذا اللقب حرمته وقداسته، وأنه لا يستحقه فعلا إلا من كان الحرمان الشريفان فى حوزته وتحت حكمه.

وقد حدث عام ١٦١هـ (٧٧٧ ـ ٧٧٨ م) أن ظهرت مؤامرة كبرى، اشترك فيها كل من أبى جعفر المنصور والإمبراطور شارلمان ملك الفرنجة، ومؤداها أن بعض العرب الساخطين على عبد الرحمن فى الأندلس ـ ممن أكل الحقد نفوسهم ـ قد أضحوا واسطة بين هذين الزعيمين، وإن كان بعض المؤرخين يشك فى هذه المؤامرة، إلا أن الأحداث تنطق بوقوعها، فها هو "ابن حبيب" والى إفريقية يَعْبُر بجيش عظيم البحر إلى الأندلس لمحاربة عبد الرحمن الذى كان يواجه بدوره شارلمان ومكائده، الأمر الذى لا مناص معه من القول بأن العرب الموتورين بالأندلس ـ من أنصار العباسيين ـ قد دبروا الأمر مع شارلمان لكى يدخل الأندلس حليفًا للمنصور العباسى.

وهكذا عبر "ابن حبيب" مضيق جبل طارق بجيش نزل به فى مقاطعة تدمير "مرسية"، وفى الأندلس قام "سليمان بن يقظان الكلبي" والى برشلونة بالاتصال بالإمبراطور شارلمان لكى يَقْدُم إلى الأندلس معاونا ومساعدا على تنحية عبد الرحمن وإقصائه عن السلطة، بينما كان شارلمان يحلم بتكوين إمبراطورية شاسعة الأرجاء يحيى بها الأمجاد السالفة، وقد واتته فرصة القدوم إلى الأندلس مطمئنا أنه كان قد قضى على الفتن فى بلاده، وأن سليمانًا الكلبى قد مهد له الطريق.

لكن الظروف كانت يومئذ إلى جانب عبد الرحمن الداخل، فما إن بلغ القائد ابن حبيب مقاطعة تدمير بجيشه، حتى كان عبد الرحمن فى مواجهته بجيشه كذلك، فاستغاث ابن حبيب بحليفه سليمان لينجده، ولكن سليمان كان فى وضع لا يسمح له بمغادرة موقعه، وأرسل إلى ابن حبيب يعتذر له عن الاستجابة الفورية حتى تصل جيوش شارلمان، الأمر الذى أتاح الفرصة لعبد الرحمن الداخل أن ينقضّ على جيش ابن حبيب فيمزقه شر ممزق، ثم يتجه نحو جيش سليمان فيقضى عليه هو الآخر.

وهكذا قُضِى على هذيْن الخارجيْن على سلطة عبد الرحمن قضاء مبرما، ومن ثَم فعندما يأتى شارلمان ليتفقد الحلفاء وأدلاء الطريق وأصحاب العون واحتياجات جيشه العظيم، فلن يجد لأىٍّ منهم أثرا.

حملة شارلمان على الأندلس

عبر شارلمان جبال البرنيز، واتجه صوب الجنوب إلى سرقسطة، إلا أن أهلها لم يستسلموا، فحاصرها، وهنا وصل عبد الرحمن الداخل بجيشه لينجد المدينة من هذا الحصار، وتشاء الظروف حينئذ أن يكون الحظ فى جانب عبد الرحمن، فقد جاءت الأنباء من مملكة شارلمان أن هناك فتنة وثورة فى شمال البلاد، قام بها السكسون الذين طالما أقضوا مضجع شارلمان، مما دعاه إلى الانسحاب فورا، مخلفا من ورائه الكثير من الغنائم والعديد من القتلى والضحايا، وعاد الجيش بقيادة شارلمان منسحبا، حيث كانت هناك مفاجأة فى طريق عودته تنتظره، فما كاد يجتاز جبال البرنيز الوعرة الضيقة حتى برزت له القبائل (قبائل البشكنس) من سكان تلك المناطق وأعملت سهامها فى مؤخرة جيش شارلمان وقذفته بالأحجار، فسقط الكثير منه صرعى، ويقال إن عبد الرحمن الداخل هو الذى أمد هذه القبائل بالمال والعتاد والسلاح! وهكذا هلك العديد من هذا الجيش الفرنسى، والذى كان ضمن ضحاياه قائد يدعى "رولاند"، كان يقود مؤخرة الجيش، فلما سمع شارلمان بمصرعه حزن عليه حزنا عظيما، فقد كان من خيرة قواده والمقربين إليه، وقد وضع شاعر فرنسى ملحمة عن مصرع هذا القائد سماها "أغنية رولان"، يرى فيها الشعب الفرنسى أنها أول أنشودة حماسية فى تاريخ الأدب الفرنسى وملاحمه.

ويذكر المؤرخون فى هذا الصدد أن عبد الرحمن قد أكبر قدر شارلمان وصولته، وبالرغم من النصر الذى أحرزه عليه إلا أنه أراد أن يكسب مودته، فعرض عليه أن

يعقد معاهدة سلم وأمان، بحيث يعايش كل من الزعيمين صاحبه دون تكدير، وأن يحتفظ كل منهما بحدود بلاده دون أطماع أو مناوشات، فما كان من شارلمان إلا أن استجاب لرغبة غريمه، ولم يفكر بعد اليوم فى أن يتجاوز مملكته تجاه الأندلس، وهذا يدل على مدى الدهاء والذكاء الذى كان يتمتع به عبد الرحمن.

إصلاحات عبد الرحمن الداخلية

لا شك أن الجهود العسكرية قد نالت جانبا كبيرا من حياة عبد الرحمن الداخل، خاصة أنه بصدد تأسيس دولة فتية، فكان مجال الإصلاحات الداخلية من جانبه محدودا، بيد أن تلك المشاكل والعوارض لم تَنَلْ من عزيمته نحو الإصلاح والإعمار فى شتى مدن الأندلس جهد المستطاع.

فمن أعماله التى قام بها، أنه ابتنى سورا حول العاصمة قرطبة على غرار طابع العواصم الإسلامية فى العصور الوسطى، وجَمَّل هذه المدينة بما أقامه فيها من روائع المعمار لشتى المرافق، كما أنشأ ضاحية بظاهر قرطبة سماها "دار الرصافة"، وجلب الماء إلى هذا القصر المحاط بالجنان، وقد زرع فيها العديد من النباتات الشرقية والأجنبية، ومنها النخيل والرمان وغيرهما. وكانت من بين تلك المزروعات نخلة فريدة فى الاعتناء، حيث جىء له بها من الشام وغُرست فى هذه الجنة، وقد حرَّكت هذه النخلة أشجان عبد الرحمن، وكان شاعرا رقيق الأحاسيس مع كونه فارسا مقداما كأعظم ما يكون الفرسان، فنظم فى نخلته هذه شعرا يقول فيه:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التفرد والنوى ... وطول التنائى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزن من صوبها الذى ... تسح ويستمرى السماكين بالوبل

هذا، ويرجع الفضل إلى عبد الرحمن الداخل فى تأسيسه مسجد قرطبة العظيم عام ١٧٠هـ ، حيث أنفق على إنشائه ما يقرب من ثمانية آلاف دينار، ثم زاد فيه خلفاؤه من بعده، حتى جاء آية فى الروعة الهندسية والطراز الفريد من نوعه، ولذلك وصفه بعض المؤرخين ممن شاهدوه بقوله: "إنه ليس فى بلاد الإسلام أعظم منه، ولا أعجب بناء وأدق صنعة". وقد أضحى هذا الجامع بعد إنجازه قبلة المسلمين فى الغرب، ومعجزة الفن الأندلسي البديع، وصار بمثابة جامعة يؤمها طلاب العلم والبحث، لا من الأندلس وحدها، ولكن من أوروبا أيضا، وبذلك أصبح منارة للعلم والثقافة طيلة العصر الأموى بالأندلس وحتى سقوط قرطبة فى حروب الاسترداد. وما زال هذا الصرح الشامخ قائما حتى وقتنا الحاضر، يشهد بحضارة المسلمين فى الغرب الإسلامى، رغم تلك التشويهات التى لحقت جزءا منه، حيث أقيمت فى هذا الجزء كنيسة صغيرة رمزا للاستيلاء على قرطبة، كما جرت عادة الإسبان عندما كانوا يستردون أية مدينة من أيدى المسلمين الأندلسيين.

وقد أولى عبد الرحمن الداخل الحركة الثقافية والفكرية عناية خاصة فى شتى أنحاء الأندلس، ولا سيما فى قرطبة، تحت سقف هذا المسجد العظيم. وقد نمّى هذه العناية الثقافية خلفاء عبد الرحمن، خصوصًا على عصر عبد الرحمن الأوسط، وعبد الرحمن الناصر، والحكم المستنصر.

وقد توفى عبد الرحمن الداخل عام ١٧٣هـ (٧٨٩م)، حيث تقلد ابنه هشام زمام الدولة.

هشام بن عبد الرحمن
(١٧٣ ـ ١٨٠ هـ/ ٧٨٩ ـ ٧٩٦ م)

لقد وقع اختيار عبد الرحمن الداخل على ابنه هشام ليخلفه من دون بنيه على زعامة هذه الدولة الفتية، وكان قد ولاه على أيامه بعض الولايات، حيث كان عند وفاة والده واليا على "ماردة"، وهى إحدى الثغور الشمالية المتاخمة للحدود مع النصارى، وذلك ليتمرس الابن بأمور الجهاد، فيكون على أهبة الاستعداد لمواجهة أية مخاطر محتملة من الأعداء.

كذلك اشتهر هشام بتدينه وورعه وتقواه، وعُرف بين الأندلسيين بتجرده من أمور الدنيا، حتى لقد شبهوه بالخليفة عمر بن عبد العزيز. وحقا لقد كان هشام يقتدى بسيرة هذا الخليفة الزاهد العادل، فقد كان يرسل عيونه فى إثر عماله على الأقاليم ليقف على سيرتهم وسياستهم نحو الرعية، فإن علم أن أحدهم يستغل سلطانه أو يظلم أحدا فإنه يتعرض للمساءلة، وربما العزل من وظيفته. كما كان يولى مسألة الزكاة عناية خاصة، فيجتهد فى جمعها من القادرين، ويبادر بإنفاقها على المستحقين. وقد بادر هشام إلى تجديد قنطرة قرطبة، حتى صارت من أعظم المنشآت وأروعها مما تم على يديه من أعمال.

سياسته الخارجية

لقد واجه هشام منذ بداية حكمه بعض الغارات المسيحية شمال البلاد، تلك

الغارات التى كان يشنها أهل جليقية ونافار، فكان يصدها بكل قواه، ويتغلب عليها فى مهدها.

وبالنسبة لبلاد "غاليا" شمال جبال البرانس، فقد كان كثير الغزو ضدها، ويتحدث المؤرخ الفرنسى "رينو" عن احتكاك هشام بفرنسا على عهده، فيقول: "إن هشاما ـ لأول حكمه ـ وجد الفتن مشتعلة فى معظم البلاد، فأراد أن يشغل الأمة عن الفتن الداخلية بجهاد العدو الخارجى، لأنه أجمع شىء للكلمة، وكان يريد أن يعيد ما ضاع من المملكة بغارات "شارلمان"، كما أراد أن يدحض شوكة المسيحيين فى شمال الأندلس.

هذا، إلا أن الأقوال كثرت فى أيامه بأن المسلمين لا يقدرون إلا على قتال بعضهم بعضا، وأفتى الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج لأمراء لا يعرفون أن يقاتلوا إلا أمة محمد وحدها، وكانوا يضربون الأمثال فى خدمة الإسلام بخلفاء بغداد الذين يواصلون غزو القسطنطينية(*).

لهذا نرى أن هشامًا يعلن الجهاد، مشيرا إلى أن من لا يستطيع الانضمام إلى صفوف المجاهدين فعليه أن يساهم بماله أو عتاده، ووزع خطباء المساجد منشورا بهذه الصيغة على جموع المصلين، فهب الناس من شتى البقاع، واجتمع حول الأمير هشام ما يقرب من مائة ألف مجاهد، فقسم هذه الجموع إلى قسمين: قسم توجه به إلى جليقية لمحاربة أهل الفتن والدسائس هناك، فهزمهم شر هزيمة، وزحف بالشطر الآخر نحو قطالونيا تحت إمرة وزيره عبد الملك بن مغيث، ومن قطالونيا اتجه نحو فرنسا لإضعاف شوكة المسيحيين على حدود بلاده.

لقد زحف عبد الملك نحو بلاد فرنسا عام ١٧٧هـ (٧٩٢م) متجها صوب "قرقشونة"، والتقى بجيوش المقاطعات الفرنسية بقيادة كونت تولوز، فيما بين

(*) المصدر السابق، ص٧٤.

أربونة وقرقشونة، والتحم الفريقان فى معركة حامية الوطيس، ونتج عنها اندحار الفرنسيين وهزيمتهم، فى حين سجل المسلمون انتصارا رائعا، وغنموا الكثير من العتاد والأموال، واكتفى المسلمون بذلك فلم يتبعوا فلول الفرنسيين، وذلك لمصرع أحد كبار القواد الإسلاميين، وبهذا استطاع هشام أن يؤمن الحدود الشمالية لمملكته ضد غارات النصارى، وأن يخمد ثوراتهم ضده.

سياسته الداخلية

لقد عمل هشام بن عبد الرحمن على انتشار مذهب الإمام مالك، انطلاقا من تدينه وورعه وتقواه، وكان هذا منه أبرز عمل سجله له التاريخ فى الأندلس.

ويرجع انتشار هذا المذهب بالذات فى الأندلس إلى أن الإمام مالكًا نفسه لم يكن على وفاق مع العباسيين الذين كانوا من أنصار المذهب الحنفى، وكان مالك يتلقى أخبار هشام، فيعجب بسيرته، ويستريح إلى سياسته. ويروى ابن خلدون فى "مقدمته" فى هذا الصدد، فيقول: "إن السذاجة التى كان عليها أهل الحجاز كان مثلها موجودا فى الأندلس، وكان أهل الأندلس يتطلعون إلى الحجاز، فهذه المشابهة هى التى جعلت أهل الأندلس يعتنقون هذا المذهب".

ويذكر المؤرخون حول انتشار مذهب مالك بالأندلس أنه وفد على مالك بالمدينة من الأندلس "زياد بن عبد الرحمن"، الذى حضر دروسه بالمسجد النبوى، ولما عاد إلى بلاده نشر المذهب المالكى، ثم تتلمذ على يد زياد شاب آخر يدعى "يحيى بن يحيى الليثي"، الذى رحل بدوره إلى المدينة والتقى بمالكًا، ثم رجع إلى الأندلس ليكمل ما بدأه زياد، وهكذا انتشر المذهب انتشارا واسعا، وكان الأندلسيون من قبل على مذهب فقيه شامى يدعى "الإمام الأوزاعي"، انتشر مذهبه على عهد بنى أمية فى الشام، ثم انتقل إلى الأندلس مع من نزح إليه من أهل الشام، حتى جاء يحيى ونشر مذهب مالك الذى حل محل مذهب الأوزاعى.

لقد كان مذهب مالك هو المعمول به فى دوائر الدولة، وفى القضاء والفُتْيَا، كما أن الأئمة المعتنقين له كانوا أصحاب الرأى والمقربين إلى بلاط الأمير، وكانت ليحيى مكانة عظيمة عند الأمير، ومع أنه لم يَلِ القضاء، إلا أن الأمير كان لا يولى قاضيًا إلا بمشورة يحيى واختياره، وكان هو لا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه.

ولما كان هشام على جانب عظيم من التقوى والورع، فلذلك كان على وفاق وانسجام مع هؤلاء الأئمة المالكيين، والذين كانوا يرون فيه الطراز الأمثل للحاكم.

وقد توفى هشام عام ١٨٠هـ (٧٩٦م) وتولى بعده ابنه "الحكم بن هشام".

الحكم بن هشام الربضى
(١٨٠ـ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ـ٨٢١ م)

سار على نهج مخالف لنهج والده فى حياته وسياسته، فكان ميَّالا إلى الصيد والترف، ومجالس الغناء والطرب، كما رأى بسياسته أن يقصى هؤلاء الفقهاء عن المناصب القيادية، بعد أن لمس مدى نفوذهم على سلطانه، فباشر معظم السلطات بنفسه، واستعان فى بعض الشئون بغيرهم، إذ كان يرى أن تدخل هؤلاء الفقهاء فيما لا يعنيهم من أمور السياسة كثيرا ما جرّ المشاكل على الدول وعليه فقد قلّص نفوذهم، وخفّض أجنحتهم، الأمر الذى جعلهم ينقمون على سياسته، ويتفننون فى الدس والكيد له ما أمكنهم ذلك.

ثورة الفقهاء وتمردهم

كان لا بد من أن يقع الصدام بين هؤلاء الفقهاء وبين الأمير، وذلك إثر انتزاعه كافة السلطات والنفوذ الذين طالما نعموا بهما أيام والده، فقد عولوا على الانتقام منه بوسيلتهم الخاصة. ومعلوم أن رجال الدين يتمتعون عادة بثقة لدى عامة الشعب، ولهم تأثيرهم الفعال بينهم، وهكذا تمكنوا من أن يحفظوا عليه النفوس، ويثيروا الناس ضده، وقد وقع حادث عادى، ولكن نظرا لحالة السخط العام يومئذ، فقد كان لهذا الحادث تأثير مباشر على ثورة اندلعت فى حى "الربض"، الواقع على

الضفة الجنوبية لنهر الوادى الكبير، ويفصل هذا الحى عن قرطبة القنطرة الرومانية، ويعمر هذا الحى بأجناس مختلطة من طبقات أهل الصناعات وطلاب العلم وغيرهم.

أما هذا الحادث الذى وقع فيتلخص فى أن جنديا حمل سيفه لإصلاحه لدى أحد الحرفيين، وقد حدث خلاف بين الجندى والصانع، وتمخض هذا الخلاف عن قتل الصانع بيد الجندى، فكان هذا نذيرا باندلاع الحريق، إذ نهض الحرفيون وقتلوا الجندى، ثم زحفوا بجموعهم وهم يحملون البلط والمدى والعصى، واندس بينهم معظم الفقهاء يحرضونهم، ويوجهونهم ناحية قصر الأمير فى قرطبة، وتزعم الفقهاء ودفعهم يحيى بن يحيى الليثى بنفسه، وفاجأت هذه الجموع الزاخرة الأمير، وحاصرته فى قصره، بيد أن الأمير سرعان ما هداه تفكيره فى هذه اللحظات الحرجة إلى حيلة بارعة، فقد استدعى على عجل بعض قواته، وأشار عليهم بأن يقصدوا حى الربض، فيشعلوا فيه النيران، على حين تدافع بعض قواته عن القصر، ولما رأى الثوار أن مساكنهم تشتعل فيها النيران أسرعوا نحوها لإنقاذ نسائهم وأولادهم، وما كادوا يتوجهون إلى حيهم حتى أعمل فيهم جنود الأمير السيوف من خلفهم، فمزقوهم شر ممزق، ولم يكتف الأمير بما فعل نحو هؤلاء الثوار، بل أصدر قرارا إلى أهل "الربض" جميعا بالجلاء عن هذه المنطقة، والنفى خارج الأندلس، وأعطاهم فرصة قدرها ثلاثة أيام، بحيث إذا ظهر أحد منهم ضربت عنقه. ثم أمر بالربض فهُدمت، وأحرقت، وحُرث مكانها وزُرع، وأوصى بألا يُسْكَن هذا الحى بعد مماته، وعليه فقد عُرف الأمير بلقب "الربضي" لهذا!

نتائج ثورة أهل الربض

أ ـ على الصعيد الداخلى

١ ـ نزوح أهل الربض عن الأندلس، ولجوئهم إلى بلاد المغرب، وخاصة إلى فاس،

حيث أقطعهم إدريس الأول حيا خاصا بهم، عُرف بحى الأندلسيين، وما زال هذا الحى قائما حتى يومنا هذا.

٢ـ تقلص نفوذ الفقهاء نهائيا على مسرح السياسة الأندلسية، وضياع هيبة هؤلاء العلماء، علما بأن فريقا كبيرا منهم شملهم النفى خارج البلاد.

٣ـ كان من نتيجة سحق الأمير لهذه الثورة أن مكّن لحكم بنى أمية فى الأندلس، واستقر الأمن فى ربوع البلاد، وشاع الأمان.

ب ـ على الصعيد الخارجى

١ـ إن نزوح أهل الربض عن الأندلس، واتجاه طائفة منهم إلى المغرب قد ساعد على نشر الفنون والصناعات الأندلسية فى فاس خاصة، وبقية مدن المغرب عامة، وهكذا استفاد المغرب صناعيا وتجاريا من هؤلاء المهاجرين.

٢ـ لقد هاجرت طائفة أخرى من أهل الربض على ظهور السفن إلى الإسكندرية، حيث احتلوا المدينة فى غيبة من حماتها بمساعدة بعض العربان، وأقاموا بها حكومة، فسير إليهم المأمون العباسى واليه على مصر يومئذ عبد الله بن طاهر بن الحسين، وهكذا ولوا وجوههم شطر جزيرة كريت التى كانت تحت الحكم البيزنطى يومئذ، ففاجئوها واحتلوها، ثم أقاموا بها دولة إسلامية ظلت بعض الوقت، وعرفت بالدولة الكلبية، وما زالوا بها حتى أجلاهم الروم عنها فيما بعد.

أعمال الحكم الحربية

لقد انتهز نصارى الشمال تلك الفتن والثورات التى شغلت الحكم فترة هامة من حكمه، فانقضّت مملكتا جليقية واستوريا النصرانيتان على الثغور الإسلامية فى جنوب الأندلس، ولكن الحكم انبرى لهؤلاء، وقاد الغزوات ضدهما بنفسه عام

١٩٦هـ ، حيث تمكن من الاستيلاء على الثغور واقتحام الحصون، ثم عاد إلى قرطبة بالسبايا والغنائم.

توفى الحكم بن هشام عام ٢٠٦هـ (٨٢١م) وتولى بعده ابنه عبد الرحمن، المعروف بعبد الرحمن الأوسط.

عبد الرحمن الأوسط

(٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ/ ٨٢١ ـ ٨٥٢م)

هـو عبد الرحمن بن الحكم الربضى بن هشام بن عبد الرحمن الداخل. ورث حكم الدولة والأمور ثابتة ممهدة، والاقتصاد مستقر، والخزائن عامرة، أما صفاته الشخصية فقد كان ذا مزاج معتدل بين اللين والعنف، وبذلك جمع بين مميزات جده هشام وأبيه الحكم. ويذكر المؤرخون عنه أنه كان رجلا آخذا بأساليب الحضارة، مهذب الطبع، ذا ثقافة واسعة، وذوق مصقول، ميالا للرفاهية والنعيم، تحدوه رغبة ملحة فى الإصلاح، فأنشأ الكثير من المرافق، وعمد إلى العديد من الإصلاحات، فأضحت الدولة على عهده يرفرف عليها الازدهار الحضارى، ويعمها الارتقاء فى شتى المرافق، وبدأت الأندلس تأخذ طابعًا حضاريًّا خاصًا ومتميزا، هو حقا مزيج من حضارتى الشرق والغرب، بحيث أمكن للأندلسيين أن يزاوجوا بين هاتين الحضارتين.

وقد خطبت معظم دول العالم يومئذ ود الأندلس، فتقاطرت وفود السفراء على بلاط الإمارة فى قرطبة، وذاع صيت الدولة شرقا وغربا.

التطور الحضارى فى الأندلس

يلاحظ أن جمهرة من العلماء فى شتى فنون المعرفة والثقافة قد يمموا

وجوههم يومئذ شطر الأندلس، خاصة من المشرق، وكان لهذا أثره البالغ فى تطوير العلوم والفنون والآداب، بدءًا من عصر عبد الرحمن الأوسط، والذى رحب بهؤلاء العلماء وذوى الاختصاصات النادرة، وأفسح لهم فى بلاطه، كما أجزل لهم العطايا والهبات، إذ عرف كيف ينتفع بخبراتهم ومواهبهم، وقد كان للجو السياسى الاستبدادى فى المشرق آنذاك أثر بالغ فى نزوح أمثال أولئك العلماء والأدباء وكبار المثقفين، إضافة إلى ما كانت تعانيه هذه الفئات هناك من أساليب التنافس والحسد.

لقد استقبل الأندلسيون هذه الخبرة من علماء المشرق، لينتفعوا بعلومهم وثقافتهم، فهيأوا لهم جوًّا خاصًا وصالحًا لكفاياتهم، ولا غرو فإن الأندلس مجال خصيب للتفوق والابتكار، كما أن أهله معروفون بالنقد والاختبار، الأمر الذى كان من شأنه ألا يستقر بالأندلس من العلماء إلا الأفذاذ الممتازون، وألا يجد به مجالا سوى أهل الفنون الفريدة.

أما مجال المجتمع الأندلسى يومئذ؛ فقد اشتهر عن أهل هذا القطر أنهم كانوا ميالين إلى اقتناء التحف والجواهر المشرقية النفيسة، والتنافس على امتلاك الجوارى الجميلات، ولهذا عمرت قصورهم ومنازلهم بكل ما هو مشرقى نادر، بالإضافة إلى ما جلبوه من بلاد الروم من نفائس، حتى غدا هذا المجتمع نموذجا لهذا المظهر الراقى، وتميز عهده بوفرة من الشخصيات الفذة ذات الدور الهام فى بناء المجتمع الأندلسى، كما يتميز العهد كذلك بالنضج والتفوق والابتكار فى شتى المجالات، نتيجة للظروف المستقرة التى مهدت لذلك، بالإضافة إلى ميول الأمير العلمية والحضارية.

وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى رأى المستشرق "دوزى" حول هذا التحول الحضارى، وبروز هذه الشخصيات الفكرية فى عهد عبد الرحمن الأوسط، والتى

يعزوها إلى أنها نتيجة طبيعية لضعف هذا الحاكم، وأن هؤلاء المفكرين قد غلبوه على أمره، بيد أن هذا الرأى خاطئ؛ لأن هذه الوضعية الخاصة لأولئك العلماء إنما هى دليل واضح على استقرار الأحوال بالأندلس يومئذ، إضافة إلى أن رقة طبع الأمير جعلت هذه الباقات الثقافية تلتف من حوله، وهكذا أمكنه الانتفاع بهذه الخبرات العالمية النادرة فى شتى مرافق الحياة الأندلسية.

وعليه فإنه لا ينبغى أن تُفَسر أمثال هذه الظواهر الحضارية بمثل هذا التفسير الذى هب إليه "دوزى"، الذى يبدو أنه لم يلم بالظروف العامة يومئذ فى شمول واستقراء.

الحضارة الأندلسية
لمحة وتحليل

للحضارة الأندلسية طابعها وخصائصها المتميزة، فقد عمل العرب منذ استقرارهم بإسبانيا على صبغ البلاد بالصبغة العربية، ونحن نعرف أن السكان هناك قد تعددت عناصرهم تبعا لأصولهم ودياناتهم وثقافاتهم، وأن هذه العناصر قد تفاعلت بالمساكنة والمصاهرة، حتى سادت الجميع علاقات طيبة فى شتى المجالات؛ اجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا، الأمر الذى كان له تأثيره على طبيعة الحضارة الأندلسية، التى شبهها بعض الباحثين لذلك ببوتقةٍ انصهرت فيها عقليات شتى، وثمرات ثقافات متباينة.

لقد جمعت الأندلس العرب والبربر والإسبان المستعربين ممن أسلموا وممن لم يسلموا، إلى جانب طوائف نازحة كاليهود، أو فئات مجلوبة كالصقالبة، وهو أمر يكاد يكون فريدا، وإن لم تكن له الأصالة بالمعنى العلمى الدقيق، ولا سيما فى المجال الثقافى؛ لاحتكاكهم بالأمم المجاورة مثل المغرب، وتبادل وجهات النظر والاقتباس من المشرق.

جاء العرب والبربر إلى إسبانيا بقوادهم وأمرائهم، وسرعان ما صاهروا الإسبان، فتناسلوا وتكاثروا، حتى أصبح الثلاثون ألفا من هؤلاء القادمين حوالى ثلاثمائة ألف فى فترة وجيزة، خلاف من انتظم أو انتسب إليهم من الموالى، الذين

قدموا معهم من المغرب أو المشرق، أو انحازوا إليهم من أهل البلاد نفسها، وحرص العرب ألا يسلكوا بهذا الوطن مسلك القوط، الذين كانوا فيها سادة وحكاما، ولم يحاولوا الاندماج فى الشعب الإسبانى، حفاظا على جنسهم. بينما دخل العرب أثناء حركات الامتداد الفكرى الإسلامى، فى عالم القرن السابع الميلادى، والشأن فى هذا بالأندلس هو الشأن فى الشام والعراق، ثم مصر وشمالى إفريقية، أمواج متدفقة ذات نهضة تسرى، لتمتد من شعب إلى شعب. وهكذا...

كان العرب الفاتحون خبراء فى الاجتماعيات، يقتبسون ما يناسبهم ويفيدهم، وينشرون مبادئ دينهم وتعاليمهم، فى طبعهم البساطة واللين، يأخذون ممن جاورهم، ويعطون ويصاهرون سكان البلاد المفتوحة، فتمتزج دماؤهم بدمائهم ويشركونهم أصولهم وأحسابهم.

ارتبط العرب مع الإسبان برباط المصاهرة، يتقدمهم فى هذا الأمراء والقواد، وعاش الطرفان جنبا إلى جنب فى تعاون وسلام، ورغم طبع البداوة فى العرب الأوَّل عموما، إلا أن لطبعهم خاصية الإحساس بالجمال وتذوقه، ولذلك لم يؤثر عن هؤلاء الفاتحين، لإسبانيا بالذات، أنهم خربوا مدن الأندلس أو بعض منشآتها، بل حتى ولا كنائسها أو بيعها، فظلت تلك المدن عامرة نابضة بالحياة، كذلك منذ بداية هذا الفتح لم يحاول العرب أن يرغموا أحدا من الإسبان على اعتناق الإسلام، ولكن طبيعة الأحداث يومئذ أدت "أتوماتيكيا" أو تلقائيا إلى تعريب هذا النصر، كما رغب الكثير من أهل البلاد فى الإسلام، فدخلوا فى دين الله أفواجا، بعد أن خبروا بأنفسهم مبادئه السامية وتشريعاته الإنسانية.

إن المتصفح لكتاب المستشرق الفرنسى "ليفى بروفنسال" (تاريخ إسبانيا الإسلامية)، يراه قد قسم سكان الأندلس إلى الفئات التالية بعد اعتبار العرب أنفسهم:

١ـ أبناء الإسبان الذين دخلوا فى الإسلام، وبقوا فى مدنهم لم يغادروا مواطنهم.

٢ـ أبناء الإسبان الذين أصبحوا ـ بحكم الفتح ـ أسرى، ثم أسلموا.

٣ـ أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح، وأبناء النصارى الذين جلبهم الغزو ثم أسلموا، واستقر بهم المقام فى الأندلس.

وعلى هذا، فقد كان المجتمع الأندلسى يتألف من العرب، وأغلبهم من الجند الفاتحين، ومن الإسبان المسلمين، أما من لم يسلموا منهم فكانوا أهل ذمة، يمارسون حرياتهم العقائدية كما كانوا قبل الفتح العربى، بل وأفضل بكثير فى ظل سماحة الإسلام.

كذلك كان من بين العناصر الأندلسية من ولدوا من آباء مسلمين وأمهات إسبانيات (المولدون)، وهؤلاء نشأوا نشأة إسلامية، ويشكلون السواد الأعظم من مواطنى الأندلس.

أما المستعربون فهم الإسبان النصارى، الذين عاشروا العرب وتعربوا، وكانوا أحرارا فى دياناتهم، ولكنهم ـ مع ذلك ـ تأثروا بالثقافة العربية، وأضحوا مولعين بالتراث العربى، لا سيما فنون الآداب الشعرية والقصصية. ووصل بهم الحال فى هذا إلى نسيان لغتهم الأصلية، الأمر الذى حدا برجال الكنيسة الكاثوليكية أن يُعْربوا عن قلقهم البالغ على الشباب المسيحى الذى هجر معظمه لغته القديمة. ومن هنا يتجلى لنا دور المستعربين ـ كهمزة وصل ـ فى نشر الحضارة العربية فى ربوع البلاد النصرانية المجاورة، إذ إن تاريخ إسبانيا فى العصور الوسطى لم يعرف الانفصال الجغرافى ولا العنصرى بين المسلمين والمسيحيين. وأن المستعربين ـ بحكم معرفتهم للغتين العربية واللاتينية ـ كانوا حلقة الاتصال بين شطرى إسبانيا المسلمة والنصرانية، وكانت رحلاتهم وهجراتهم إلى الشمال المسيحى مجالا لانتشار الثقافة العربية والعادات الإسلامية هناك.

لقد كانت روح المسلمين الفاتحين ودينهم ولغتهم هى التى تغلبت حقا فى شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا)، وقد ساعدت على ذلك اللغة العربية، التى لم تكن لغة فتح بقدر ما كانت لغة علوم ومعارف تفتقر إليها البلاد المفتوحة، ولا سيما إبان فترة الركود التى سادت إسبانيا زمن القوط، ومن هنا يقارن الأستاذ كرد على بين إسبانيا القوطية وإسبانيا العربية، فيقول:

"شعر الإسبان بالفرق بين حكم العرب وحكم القوط، ورأوا من تسامح العرب وتفانيهم فى نشر العدل بين الناس ما يثلج له الفؤاد، وأبقى العربُ السكان الأصليين على قضائهم وإدارتهم، وقلدوهم الوظائف". فأحب الإسبان العرب محبة خالصة، ورأوا الفرق الشاسع بين الحضارة التى يحملها المسلمون، وما كان للقوط من الثقافة المتأخرة التى كانت أقرب إلى الهمجية، ولم يمضِ قرن حتى أخصبت القرى وكثرت المزارع واتصل العمران، وتزاحم الناس على سكنى المدن، وأسست قرطبة عاصمة الخلافة الأموية الأندلسية كعواصم أوروبا اليوم، وأمست عاصمة علم وصناعة وفن وتجارة.

إنه لا جدال حقا فى أن إسبانيا فى العهد العربى، قد سطرت صفحة من أروع الصفحات فى التاريخ الحضارى والعقلى لأوروبا فى العصور الوسطى. ولقد كان الناطقون بالعربية فيما بين منتصف القرن الثامن وأوائل القرن الثالث عشر هم رواد الثقافة والمدنية فى أنحاء العالم كله، كما كانوا وسيلة لها فضلها فى الكشف عن الفلسفة والعلوم القديمة، ثم ترجمتها والإضافة إليها، فكانت ريادتهم بذلك نواة النهضة الأوروبية، وكان لإسبانيا حظ وافر فى هذا الميدان.

ونظرا لاتصال الأندلس بأوروبا، وقدوم كثير من الأوروبيين إليه، فقد كان هذا مدعاة لأن يؤثر فيها بعلومه وفنونه وآدابه أكثر من تأثير المشرق، وبخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار قدوم الدارسين الأوروبيين إلى الأندلس، حيث يتثقفون على يد

العرب، كما يتعرفون على عاداتهم، ثم يقلدونهم عند أهلهم إذا ما رجعوا إليهم. وكأن كثيرًا من اليهود قد أعجبوا بالأندلس العربية وآدابها، ثم نقلوها إلى أوساط أخرى هاجروا إليها من بعد، كما انتقلت إلى أوروبا يومئذ صناعات أندلسية كثيرة، كصناعة الحرير التى اشتهرت بها غرناطة، وانتقلت إلى إيطاليا، وصناعة الورق التى أثبت انتقالها كثيرون من البحارة، وصناعة السيوف والخناجر التى غمرت الأسواق الأوروبية فى عصور غرناطة المتأخرة. وهكذا..، فإن التاريخ شاهد صدق، والأبحاث يوما بعد يوم تكشف عن الأحداث العلمية التى يتشابه فيها إنتاج أوروبا بإنتاج العرب، ولا يتطرق شك فى أصولها العربية فى الاجتماع والطبيعة والكيمياء والرياضة والهندسة وغيرها، ولا يطمس الحقائق العلمية التعصب الأوروبى أحيانا؛ لأن التاريخ كفيل بكشف الحقائق يوما بعد يوم.

حقا إن من يعترفون بفضل الحضارة العربية على أوروبا قلائل، نذكر منهم عالم الاجتماع الفرنسى "جوستاف لوبون"، الذى وضع كتابا فى هذا الشأن بعنوان (الحضارة العربية)، وأنصفنا فيه، بعد أن كشف عن أسرار الحضارة العربية، وأرجع أسس حضارة أوروبا إلى العرب، ويتحدث فى هذا الصدد منطقيا، عندما يذكر أنه لا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذى أثره العرب فى أوروبا إلا إذا تصور حالة هذه الأخيرة فى الزمن الذى دخلت فيه الحضارة العربية أوروبا نفسها.

كما يرى "لوبون" أن الحضارة العربية لم تغزُ أوروبا نتيجة الحروب الصليبية، كما هو الحال والرأى الشائع، وإنما دخلت بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا، ثم ينوه بالحضارة العربية بإسبانيا يوم كانت أوروبا غارقة فى دياجير الظلام.

إن ما كتبه المفكر الفرنسى يتمشى فى أصوله مع آخرين قاسموه إنصافه للعرب بحق، فمنهم المؤرخ "رينو" فى كتابه (غزوات العرب)، وكذا "ساريتو" فى كتابه (الحضارة)، وأخيرا المفكران "لافيس ورامبوا" فى كتابهما (التاريخ العام).

نماذج من الشخصيات العلمية والفنية في عهد عبد الرحمن الأوسط

أ- يحيى بن يحيى الليثى

أحد الفقهاء الكبار، بل هو إمامهم، وقاض عظيم من قضاة هشام، وقد أمكنه أن يستعيد سلطانه على عهد عبد الرحمن الأوسط، إذ أضحى مستشاره القضائى، بل اعتبر "وزير العدل" بتعبيرنا الحديث، حيث كان يوكل إليه تعيين القضاة للأقاليم الأندلسية، وله كلمة الفتوى فى معضلات المسائل، كما كان محل الاستشارة لدى الأمير فى الأمور الهامة للدولة، ولما كانت هذه الشخصية العلمية ذات مكانة مرموقة على الصعيدين الرسمى والشعبى؛ فإننا نراه قد استثنى أو أفلت من عقوبة الحكم الربضى للفقهاء المحرضين لثورة أهل الربض.

ويرجع الفضل إلى هذا الفقيه فى نشر مذهب الإمام مالك بالأندلس، بعد أن انحسر مذهب الأوزاعى عن البلاد، وبذلك جمع بين الزعامة الدينية والهيمنة السياسية فى بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط، حتى قيل إن سلطانه قد اتسع بدرجة كبيرة، فقد كان يحاول الاستبداد بالأمير أحيانا ويفرض عليه آراءه، مستغلا مركزه وجاهه.

ب- عباس بن فرناس

أحد علماء الطبيعة والكيمياء المشهورين يومئذ، وكانت الفكرة الأوروبية

السائدة حينئذ أن من يشتغلون بهذه العلوم إنما هم فى حقيقة الأمر إما سحرة أو كُهان، فكان نصيبهم القتل أو الإحراق جزاء سحرهم وكهانتهم، وكان ابن فرناس فى نظر كثيرين نموذجًا لهؤلاء، وخاصة فى نظر بعض أهل الأندلس، بيد أنه كان بعلمه وأفكاره شخصية أسطورية؛ لبراعته فى ميدان الطبيعة والكيمياء والفلك.

درس الفلك، وقام بتجربة فعلية فى هذا الميدان، حيث رسم فى منزله شكل القبة السماوية، وقسمها إلى بروج ومنازل للشمس والأفلاك على مدار السنة، وذلك محاولة منه لبيان اختلاف الفصول ودورات القمر، وكان يحلو له أن يدعو الناس لمشاهدة تجاربه الفلكية والعلمية، فكان البعض يعجب به ويحاول أن يستفيد من علومه، بينما نرى البعض يعرضون عنه، بل ويسخرون منه أحيانا ويتهكمون.

ولقد كان أبرز وأهم حدث فى حياته العلمية وتجاربه ما نسب إليه من أنه قام بمحاولة الطيران، بعد أن صنع لنفسه طائرة خاصة، وعليه فإن صحت هذه الرواية فسيكون ذلك منه سبقا علميًا عظيمًا فى هذا الميدان، ودليلاً ناصعًا على مقدار ما بلغه العقل العربى فى فجر التاريخ، ومن العجيب أن كثيرًا من معاصريه قد اتهموه يومئذ بممارسة السحر والشعوذة، ولجأوا إلى القضاء للاقتصاص منه، بيد أن القضاة لم يجدوا من الأدلة ما يثبت إدانته، الأمر الذى لم يجدوا معه مناصا من تبرئته وإطلاق سراحه.

جـ- الحسن بن نافع "زرياب"

هو الموسيقى المشهور، من ألمع شخصيات العصر، بل من ألمع شخصيات التاريخ الإسلامى.

أصله من العراق، وهو أحد الموالى هناك، تتلمذ فى فن الموسيقى على يد أبى إسحاق الموصلى، كبير المغنيين فى بلاط الخليفة هارون الرشيد. ويروى فى ذلك أن الرشيد طلب من إسحاق مُغنيًا يستمع إليه فى إحدى المناسبات فقدم له

"زرياب"، وما إن مثل هذا أمام الخليفة حتى أصر على أن يغنى ويعزف على عوده الشخصى، والذى احتوى على مزايا ينفرد بها على عود أستاذه، وكان أن غنى فأطرب الرشيد والحاضرين، وبلغ الإعجاب به مبلغًا عظيمًا، وعندئذ أيقن الموصلى أنه ضائع لا محالة، وأن تلميذه سيحتل مكانته فى القصر، فاختلى بزرياب مهددًا إياه بالوعيد، وذلك إن لم ينزح عن بغداد بل عن العراق، ولما كان زرياب قد تسامع بما عليه الأندلس يومئذ من حضارة بلغت الأوج فى عهد عبد الرحمن الأوسط، فإنه حزم أمره، وقرر التوجه إلى هذه البلاد، فرحب به عبد الرحمن، وأنزله منزلاً طيبًا، وأحاطه وأهله بكرمه ورعايته، وصار المغنى والموسيقى المفضل لديه.

ميزة زرياب الموسيقية

لقد جدد زرياب فى الألحان تجديدا لم يسبق إليه، وامتاز فى هذا الميدان بمهارة منقطعة النظير، وكان صاحب "عود" يمتاز عن بقية الأعواد بميزات خاصة، فقد جعله أربعة أوتار، يرمز كل وتر منها إلى طبع من طبائع النفس فهى: الهادئ، والعصبى، والصفراوى، والبارد. وأما طبائع المواد الأربعة فهى: الماء، والهواء، والتراب، والنار. وقد تمكن زرياب من أن يضيف إليها وترا خامسا وسطا بين الهادئ والعصبى، ورمز له "بالروح" وسماه "صول".

ويعتبر زرياب فى عالم الموسيقى والغناء أول من استخدم الكورس، وهو المجموعات فى الغناء والإنشاد، فكان يغنى وسط مجموعة من تلاميذه، قصد ضبط الصوت وتقويته وتنقيته، وذلك على نفس الأسس التى يجرى بها العمل فى معاهد الموسيقى فى عصرنا الحاضر، ويعتبر زرياب صاحب مدرسة متميزة فى الأندلس، بحيث جرى تقليده فى عصره وكذا من بعده، بل إن أثره ـ كما يقال ـ ما زال باقيا فى الموسيقى الأندلسية حتى اليوم، والتى يعرفها أهل المغرب وتونس ومصر والشام، بل يقال إن أثر موسيقى زرياب ما زال بارزا فى الموسيقى الإسبانية.

تأثر عصره بمظهره وذوقه

وحتى مظهره الشخصى كان متميزا به عن غيره، وذلك فى اللباس، وفى تصفيف شعره بطريقة خاصة، حيث كان يفرقه فى المنتصف، ويرسله إلى ما وراء الأذنين، وقد تبعه الأندلسيون فى تصفيف الشعر على هذا النحو، فقد كانوا حاسرى الرءوس على غرار النصارى يومئذ، وعلى خلاف أهل المغرب الذين كانوا يتعممون أو يغطون رءوسهم.

وقد كان من عادة الأندلسيين كذلك أن يرتدوا الملابس الصوفية فى فصلى الشتاء والصيف، فعلمهم زرياب ارتداء الصوف شتاء، وارتداء الثياب القطنية صيفا، كما قلدوه فى شكل الثياب وتفصيلها والعناية الفائقة بها، كذلك ترسموا نهجه فى ذوقه المنزلى، حيث كانت له طريقته الخاصة فى ترتيب أثاث البيت وتنسيقه.

وخلاصة القول أن زرياب قد أثر فى المجتمع الأندلسى تأثيرًا بالغًا وملموسًا، وذلك فى المظهر الخارجى للحياة، والمظهر الداخلى للمنزل، وكان تلاميذه ينشرون عنه كل ما يرونه منفردا فيه فى شتى الأمور على اختلافها.

يوصف زرياب بأنه كان أسود اللون، وقد اشتق اسمه من اسم طائر بالأندلس غاية فى السواد.

ونشير أخيرًا إلى أن تقريب الأمير عبد الرحمن الأوسط لزرياب قد أثار حسد الآخرين من حوله، حيث هالتهم هذه العطايا وتلك الهبات التى أولاها الأمير له، فأرادوا الكيد والدسَّ له، ولكن عبثًا حاولوا ذلك، ويرجع هذا إلى ذكاء ولباقة زرياب، الذى كان بمنأى عن السياسة وأساليبها ورجالها، وعليه فقد حاز الأمان واكتسب ثقة ومحبة الأمير وبلاطه.

د ـ طروب

وهى جارية من جوارى قصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، بشكنسية الأصل،

وقد تسرى بها، وولدت له محمدا، وكان شديد التعلق بها، لدرجة أنه كان يقرض فيها الشعر، وكانت هى من جهتها غاية فى الأنانية والطمع فى مال الأمير؛ لأنها كانت تعتقد أن المال سيساعدها على تنفيذ مخططاتها، حيث كان جو التنافس بين نساء القصر على أشده يومئذ، وكانت هى ترجو أن يكون ابنها محمد وليا للعهد، حتى يقال إنها كثيرا ما فكرت فى قتل الأمير، مستعينة فى ذلك بنصر الخصى، ولكن ذلك لم يتحقق لها، إلا أن طروب هذه كانت نموذجا لطبقة ذات أثر وتأثير بين حريم القصر والسلطان اللائى كن ـ خلاف العربيات ـ ثلاثة أصناف: البشكنسيات، والصقليات، والجليقيات، وكان من عادة بنى أمية الأندلسيين الحاكمين تفضيلهم للشقراوات من الجوارى ذوات الشعر الأحمر، وهؤلاء كن من الصنف الجليقى، وكانت لهن لذلك سوق رائجة بين الجوارى الأخريات، كما كن مضرب المثل فى الروعة والرشاقة والجمال.

فهذه الشخصية النسائية التى نحن بصددها كانت تمثل سلطان الحريم فى بلاط السلطان عبد الرحمن الأوسط، وكان لنفوذها بين أهل البيت أثر واضح فى تدخلها فى الأمور، وكانت تستعين فى سبيل بلوغ غاياتها بالأقوياء وأصحاب النفوذ من رجال الحكم.

هـ ـ نصر الخصى

وهو نموذج آخر من النماذج التى كان يموج بها قصر عبد الرحمن الأوسط، ومن ذوى النفوذ من وراء ستار، ذلك أن أمراء بنى أمية كانوا يستكثرون من الخدم والعبيد الأجانب ولا سيما الصقالبة، الذين نطلق عليهم الآن الروس، فكان تجار العبيد يجلبونهم من بلادهم إما عن طريق الشراء أو الاختطاف، حيث يعرفون ميل بنى أمية لهؤلاء لذكائهم وإخلاصهم، كما كان أغنياء الأندلس يفضلونهم، فكان التجار يبيعونهم لهم بأثمان باهظة، فاستكثر منهم عبد الرحمن فى القصر، وصار هؤلاء العبيد أصحاب نفوذ فى البلاط.

هذا، وقد كان نصر الخصى يبذل قصارى جهده فى أن تكون له مكانة فريدة فى القصر، ولكن إمكانياته لم تكن لتساعده على بلوغ غاياته، فكثيرا ما كلفه مولاه بمهام كان يقصر باعه عن أدائها، فكان محل تهكم من رجال الحاشية، وكثيرا ما استثاروه فأضمر لهم الشر، ومن هؤلاء "يحيى الغزال"، بيد أن نصرا كان يلجأ إلى إحاطة "ولى العهد" بمختلف ألوان العناية، ليكسب بذلك رضا السلطانة، وعليه فكان يتعجل بينه وبين نفسه موت الأمير شخصيا، ليحل محله ولى العهد، وبذلك ينتصر هذا الخصى الأسود فى دوائر القصر، ولقد حاول فى سبيل تحقيق أمنيته ـ نحو ولى العهد ـ أن يسقى عبد الرحمن السم، ولكنه فشل فى ذلك، وكان نصيبه أن مات هو بنفس هذا السم مؤخرا.

و ـ يحيى بن حكم البكرى "الغزّال"

ويلقب بيحيى الغزال، وهو إحدى الشخصيات التى حفل بها بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط، وهو نموذج لطبقة زخر بها تاريخ الأدب الأندلسى يومئذ، وهو واحد من أولئك الذين حباهم العصر بموهبة الأدب، فعاشوا حياة فنية صرفة، لا يعنيهم من أمور الحياة من حولهم شيء، فقد انصرفوا إلى أدبهم، مستمدين منه ركيزة معيشتهم، وكان من هذه الطائفة بالأندلس يومئذ كثيرون، نذكر منهم: ابن زيدون، وابن شهيد، وولادة بنت المستكفى، وغير هؤلاء كثرة قلما نظفر بمثلها فى المشرق، على أن هناك فرقا بين هذا الصنف الأندلسى من الأدباء وبين نظرائهم المشارقة، وهو أن أرباب الأدب فى الأندلس كانوا يتعاطون الفن للفن فى ذاته، لا يبتغون به عند سلطان جاهًا، أو يتكسبون به فى بلاط السلاطين بأدبهم، وعليه فلا يبالغون فى مديح هذا الأمير أو ذاك، ولا يتملقون أحدا من ذوى السلطان والنفوذ.

فكان يحيى الغزال نموذجا لهؤلاء الأدباء المترفعين، إذ لا نراه يتحين فرصة لمدح أمير أو وزير، بل ربما هجا بعضهم متى رآه أهلا لذلك، كما كان لا يتورع عن هجاء

بعض الفقهاء من أهل عصره لسبب أو لآخر، لا سيما وأنه كان يقول الشعر منتصرا لمذهب، فيغضب هؤلاء، مما خلق له خصومات عندهم أو عند آخرين.

تولى بعض الوظائف المتواضعة فى بلاط عبد الرحمن الأوسط، فكان لا يتحرى الدقة فيما يوكل إليه من مهام، وكثيرا ما كان يتصرف كما يحلو له، فكان يعفى من وظائفه لهذا، وقد حدث عندما أقصى عن أعماله أن تناول بعض رجال الحاشية بالنقد، فغضبوا عليه وشكوه إلى الأمير، فأخرجه هذا من الأندلس بعد أن تكررت الشكاوى ضده، فذهب إلى بغداد، وخاض مجالس الأدباء، ونالهم منه ما يكرهون، واضطر ـ تحت ضغط الخصومات مع الآخرين ـ إلى الرجوع للأندلس، وبعودته عفا عنه الأمير، وسمح له فى بلاطه بالانتساب، وعهد إليه فى النهاية بالسفارة إلى الملوك والأمراء، وهو تقليد سام وجليل، ويمكّنه أن يقوم بأعبائه على أكمل وجه، خاصة وأنه كان وسيما ذكيا، فصيح اللسان، وهى مؤهلات تتناسب ووفادته إلى الأمراء، ليعود موفقا غانما.

ز ـ ابن عبد ربه الأندلسى

هو سعيد بن عبد ربه صاحب كتاب (العقد الفريد)، كان مثالا لشعراء المناسبات، وهو شاعر البلاط، يعيش من عطايا الأمراء وهباتهم، وقد حفل الأندلس بأمثاله فى ذلك العصر والعصور التالية، وقد درس اللغة العربية وآدابها، وتاريخ العرب وأيامهم وأحداثهم الماضية، حتى صار موسوعة تجمع كل هذا التراث، وهكذا جمع ابن عبد ربه ما أمكنه من ذلك فى كتابه (العقد الفريد)؛ فقد ألم فيه من كل بستان بزهرة، بين شعر وفقه ولغة وتاريخ، ويسترسل بين هذا الفن أو ذاك، فى سهولة ويسر.

ويذكر المؤرخون أن كتاب العقد الفريد مثل كتاب الكامل، لأبى العباس المبرد، كتاب أدب نموذجى، سماه صاحبه "العقد"؛ لأنه جعل الفصول جواهر، وأدار الحديث فى كل فصل عن ناحية بعينها من نواحى الثقافة العربية؛ من كلام عن أيام

العرب، إلى حديث عن أسواقها، إلى إشارات إلى الخيل وأصنافها، وما قيل فيها، إلى ذكر الشعراء الجاهليين والأمويين، إلى غرائب ما قيل فى الكرم أو الشجاعة أو الفضيلة، أو ما إلى ذلك. كل ذلك فى فرائد لغوية تدل على إلمامه باللغة إلماما تاما(*).

وتدل حصيلة هذا الكتاب على أن الأندلس يومئذ قد وَسِعَ معارف المشرق وآدابه، على يد هذه النخبة من الأدباء الأفذاذ الذين حفل بهم بلاط الأمراء، وأن الجو الذى ظهر فيه مثل هذا الكتاب (العقد الفريد) كان جوًّا عربيًّا بما تحمل الكلمة من معنى.

هكذا كان الجو الثقافى والاجتماعى فى الأندلس على عصر عبد الرحمن الأوسط وما تلاه، وحتى قبيل نهاية عصر بنى أمية.

(*) المجمل فى تاريخ الأندلس، ص٩٥.

الأحداث الخارجية
على عهد عبد الرحمن الأوسط

هجوم النورمان على الأندلس

لقد أغار النورمان على الأندلس عام ٢٠٩هـ (٨٢٤م) عن طريق البحر، إذ كانوا يأتون فى مراكب صغيرة، ذات أشرعة سوداء، وينتشرون على مختلف الشواطئ بسفنهم، ثم ينزلون إلى البر فينشئون معسكرًا صغيرًا فى المكان الذى يحددونه، ومنه يندفعون فى غارات مفاجئة على المدن والقرى حيث يهددون السكان، وينهبون ما يصادفهم من مال ومتاع، ثم يرجعون إلى معسكرهم، فيودعون به ما نهبوه، وحين تنتهى غاراتهم يسرعون إلى نقل ما بهذه المعسكرات من أموال وأمتعة، ثم ينطلقون بسفنهم إلى موضع آخر. والعجيب فى أمر هؤلاء النورمان أنهم كانوا إذا نزلوا بأرض الأندلس، يُلقون الرعب فى قلوب الناس فى أى بقعة من أرض الأندلس، حيث كانوا يشعلون النيران، إرهابا وتخويفا للناس، ومن ثَمَّ يباشرون قرصنتهم ضد أهل المدن والقرى، ولهذا ظنهم السكان من عباد النار "المجوس"، وإن كانوا فى الحقيقة ليسوا كذلك.

وأول نزولهم كان عند الاشبونة "لشبونة"(*)؛ أى من مصب نهر تاجه، وقد

(*) هى عاصمة البرتغال حاليا Lesboa.

استطاعوا أن يُنزلوا الرعب بسكان هذه الناحية، ويفوزوا منها بغنائم كثيرة، قبل أن يتجمع المسلمون ويستطيعوا ردهم، فذهبوا فى مراكبهم إلى مصب الوادى الكبير، وهو مصب واسع فيه جزائر، فاتخذ المجوس هذه الجزائر معسكرات لهم، وساروا بسفنهم فى النهر، فنهبوا المدن الواقعة على ضفتيه، وخاصة إشبيلية، ولم يستطع رجال عبد الرحمن الأوسط التغلب عليهم إلا فى مشقة، فذهبوا بغنائم وافرة، ودخلوا البحر المتوسط، وأغاروا على شرقى الأندلس غارة سريعة، ثم وصلوا إلى سواحل "غالة الجنوبية"، وعادوا فلقيهم المسلمون فى طريق عودتهم فى البحر وهزموهم، فانصرفوا عن الأندلس، ولم يعودوا إلا فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن(*).

ولعل رد الفعل لهذه الغارات التى قام بها هؤلاء "النورمان" هو تفكير الدولة جديا فى إنشاء الأسطول البحرى الإسلامى وإقامة قواعد له فى أنحاء من الشواطئ الأندلسية، فقد كان حكام الأندلس قبل تلك الغارات لا يفكرون فى إنشاء قواعد بحرية أو أسطول حربى، ولكن ما إن فاجأتهم سفن النورمان على هذه الصورة حتى بادروا إلى إنشاء أساطيل بحرية حربية تدافع عن سواحل الأندلس، وهكذا صُنعت هذه الأساطيل بفضل الملاحين الأندلسيين المهرة، وسرعان ما تطورت هذه الصناعة وازدهرت، حتى أصبح للأندلس أسطول بحرى حربى قوى، بحيث أمكنه أن يسيطر على الحوض الغربى للبحر المتوسط، واستولى على الجزائر الشرقية التى تعرف حاليا بجزائر "البليار".

لقد أضحى للأندلسيين أسطولان عظيمان: أسطول المحيط الأطلسى، وأسطول البحر المتوسط، ولكل واحد من هذين الأسطولين قواعد منتشرة على الساحل الغربى والجنوبى، والجنوبى الشرقى خاصة، وأهم هذه القواعد فى مدن: لقنت، وشريش، وطرش، وشلب، وقرطاجنة الحلفاء، وبجانة، والجزيرة، والاشبونة.

(*) المصدر السابق ص ٩٦، ٩٧.

وكل مركز من هذه المراكز البحرية يشتمل على ترسانة خاصة بصناعة السفن، بالإضافة إلى إدارة بحرية تتولى شئون الأسطول الحربى، وهكذا أضيف إلى أسلحة الجيش الأندلسى السلاح البحرى، ممثلا فى الأسطول، وكان جنوده ورؤساؤهم ذوو وضعية ممتازة بين أسلحة الجيش.

المشاكل الداخلية
فى عهد عبد الرحمن الأوسط

١ـ ثورة المستعربين

يقصد بالمستعربين أولئك النصارى الذين ظلوا على دينهم، ودخلوا فى ذمة المسلمين، وتعربوا لسانا وثقافة وأسلوب معيشة، وهم يكوّنون أعدادًا عظيمة فى الأندلس، تربطهم بالمسلمين علاقات جوار وتفاهم وانسجام، ولما كان عهد عبد الرحمن هذا يتميز بالرخاء واستقرار الأمن فإن قيام هؤلاء المستعربين بثورتهم فى قرطبة العاصمة لمما يبعث على الدهشة ويثير الاستغراب، خاصة إذا ما عرفنا أن الأمير لم يكن متعصبا من الناحية الدينية، كما أنه كان يعامل جميع الرعايا على قدم المساواة فى الحقوق والواجبات.

لكن إذا عرف السبب بطل العجب كما يقولون، ذلك أنه كانت بقرطبة طائفة من القسس ذوى عصبية وتطرف دينى منقطع النظير، فانطلقوا يثيرون النصارى ضد الإسلام، ويدفعونهم إلى إثارة الاضطرابات الطائفية، ولعل أبرز شخصية من هؤلاء القسس هو المسمى "الفارو" القرطبى، وكان معروفا بثرائه، وتحمسه لعقيدته، مما جعله يثير حماس النصارى ضد الثقافة الإسلامية، وينعى على بنى

جنسه إقبالهم الكبير على اللغة العربية وآدابها، وإهمالهم آداب آبائهم وشعراء الكنيسة اللاتين، وبإثارته هذه وتحريضه تقع الفتن بين المسلمين والنصارى، ويصاب المسيحيون بأذى من طرف المسلمين، وقد حدث أن سبق كثيرون من شباب النصارى المتهورين إلى القضاة المسلمين، الذين كانوا فى حرج من الحكم على هؤلاء الشباب فى قضايا تمس العقيدة الإسلامية، ومن هذه القضايا ما كان يتعلق بسبٍّ بعض شباب المسيحيين للنبى محمد ﷺ تطرفا منهم وجنونا، فكان القضاة حينئذ يطلبون إليهم الرجوع عما سلف منهم، والتوبة عما اقترفوه، ولا يقررون ضدهم العقوبات المناسبة إلا فى حالة العناد والإصرار، أو العودة ثانية لما بدر منهم.

أما رؤساء الكنائس وعامة النصارى، فقد استنكروا هذه الفتن، ووجهوا اللوم إلى هؤلاء الشباب المتطرفين، وبالتالى فقد وقفوا إلى جانب ولاة الأمر فى الدولة، فى قمع هذه الفتنة والقضاء على المتسببين فيها، وإنزال العقوبات بالمشتركين والقائمين عليها، حتى قضى على هذه الفتنة.

وبهذه المناسبة نذكر أنه قد اشتعلت بعض الفتن الداخلية فى بعض مدن الأندلس على عهد عبد الرحمن الأوسط، ولكنه تمكن من القضاء عليها، وإخمادها فى مهدها، وكانت أهدافها العبث بالأمن وتعكير صفو ذلك الاستقرار والرخاء، الذى شمل ربوع البلاد فى ذلك العهد.

٢ـ الخلافات بين العرب

لقد وقعت بين العرب فى عهد الأوسط خصومات شديدة، كان أبرزها وأشدها تلك الفتنة التى نشبت بين المضريين واليمنيين فى إقليم مرسية شرق الأندلس، لأسباب تافهة، وأيا كانت هذه الأسباب فقد دامت تلك الفتنة قرابة سبع

سنوات مما يدل على أن جذور الخلاف كانت لا تزال دماؤها تسرى فى عروق الفريقين ردحا من الزمن، وعلى أية حال لقد استطاع عبد الرحمن الأوسط القضاء عليها، وإنزال العقوبات المناسبة برؤساء الفتنة، وإن كانت روح هذه الثورة قد ظلت بعدئذ فى الإقليم، بحيث أتيحت لها الفرصة لتتفجر من جديد فى عصر الأمير عبد الله.

الغارات البحرية التى قام بها النورمان

هذه هى أهم الأحداث التى واجهت عبد الرحمن الأوسط فى الداخل، وتمكن من التغلب عليها، مثلما أمكنه أن يتغلب على الخطر الخارجى، والذى تمثل فى الغارات البحرية التى قام بها النورمان، بحيث حق للمؤرخين أن يصفوا شخصية هذا الأمير بأنها مزيج من اللين والعنف والسياسة والدهاء.

الأندلس بعد عبد الرحمن الأوسط

(٢٣٨ـ ٣٠٠هـ/ ٨٥٢ـ ٩١٢م)

لقد تميز عهد عبد الرحمن الأوسط بحضارته ومدنيته، حيث تخطت فيه المدن الإسلامية الأندلسية مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة، وقطعت فى هذا المضمار أشواطًا بعيدة المدى، ونظرًا لرسوخ قدم الحكم وقوة بأس الحاكم، فإن تلك العوامل الداخلية لم تستطع أن تنال من وحدة الأمة، فقد استطاع الأمير عبد الرحمن أن يقلم أظافر تلك الحركات، وأن يخمد نيرانها فى ظرف وجيز، حتى استقام عود الدولة، وسارت الأمور على ما يرام، بيد أن هذه الحركات كانت بداية لفترة تلت عهد الأمير، وتميزت تلك بأنها فجوة بين عهدين: عهد عبد الرحمن الأوسط، وعهد عبد الرحمن الناصر.

وتنحصر هذه الفترة بين عام ٢٣٨هـ وبين عام ٣٠٠هـ، وقد تأثرت هذه الحقبة بالبيئة الجغرافية لشبه الجزيرة، كما كانت متأثرة بنوعية سكان إسبانيا يومئذ. وقد شملت هذه الفترة ولاية محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ/ ٨٥٢ ـ ٨٧١م).

وولايـة كل من ولديه المنذر بن محمد (٢٧٣ ـ ٢٧٥هـ/ ٨٨٦ ـ ٨٨٨م)، ثم عبد الله بن محمد (٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ/ ٨٨٨ ـ ٩١٢م).

فإذا ما استقصينا مسيرة الحوادث لهذه الفترة من تاريخ الأندلس فسنلمس أثر الجغرافيا والبيئة البشرية اللذان تحكّما فيما شاب البلاد من حوادث تفكك واستغلال لبعض الولايات أو المقاطعات.

ويتناول أحد المؤرخين(*) هذين العاملين بالتحليل، فبالنسبة للعامل الجغرافى، يقول: "وشبه جزيرة إسبانيا تتكون من هضبة قديمة، تقطعها سلاسل من الجبال مستعرضة، تحصر بينها وديانا طولية من الشرق إلى الغرب، وكذلك تخترقها أنهار مستعرضة، تجرى فى غالبها من الشرق إلى الغرب فى وديان محفوفة على الأرجح بحافات هضاب أو جبال، ومن شأن البلاد التى سطحها كذلك أن تميل إلى الحكم اللامركزى، فإسبانيا بعاملها الجغرافى هذا تميل إلى اللامركزية، فإذا أضيف إلى هذا العامل عامل بشرى يميل أيضا إلى اللامركزية كانت البلاد أشد ميلا إلى ذلك.

وبالنسبة للعامل السكانى يذكر المؤرخ نفسه أن سكان إسبانيا فى ذلك الوقت كانوا يتكونون من: القوط الذين حكموا قبل العرب، والسكان الأصليين الذين حكمهم القوط، ثم من العرب والبربر الفاتحين. وهذه الشعوب تختلف من حيث الجنس والعادات واللغة بل والدين أيضا، وكل جنس من هذه الأجناس بقى يتميز بخصائصه؛ فالعرب الذين نزلوا الأندلس نزلت قبائلهم محتفظة بشخصيتها، معتدة بأنسابها، فهناك قبائل مضرية وأخرى يمنية، ولكل قبيلة شخصيتها القائمة، وقد نزلت هذه القبائل أماكن بعينها، واحتلت أجزاء بذاتها، والبربر أيضا كانوا قبائل ونزلوا محتفظين بنظامهم القبلى، واحتلوا جزءا بعينه من شبه الجزيرة، أما المجتمع الإسبانى فقد لحقه تغير كبير، فقد انتشر الإسلام واللغة العربية بين السكان الأصليين أنفسهم، فاعتنق كثير منهم الإسلام وتكلم العربية، وتزوج العرب والبربر من هؤلاء السكان الأصليين، فنشأ جيل مشترك فى الدم والنسب عرف باسم "المولدين"، وكان لهذا الجيل طابعه وشخصيته، وبقى عدد كبير من أهل

(*) "العبادي" فى (المجمل فى تاريخ الأندلس)، ص١٠٤، ١٠٥.

البلاد لم يعتنق الإسلام، واحتفظ بدياناته من مسيحية ويهودية، ولكنه تعلم العربية، وأخذ بأسلوب العرب فى الحياة، فعُرف هؤلاء باسم المستعربين، وكانت لهم شخصية تميزت فى حوادث هذه الفترة.

وعليه فإن هذين العاملين: الجغرافى والبشرى؛ قد لعبا دورا فى القضاء على المركزية بالعاصمة قرطبة، وقد ساعد على ذلك ضعف الخلفاء الذين توالوا على الحكم بعد عبد الرحمن الأوسط، وكانت النتيجة الحتمية قيام دويلات خلال هذه الفترة بعضها عربى، وبعضها بربرى، وبعضها مولدى، أما طبقة المستعربين فلم يتسنَ لهم تكوين دويلة على غرار هؤلاء، حيث لم تتوفر لهم الإمكانيات التى أتيحت للآخرين.

أ ـ الدويلات العربية

لقد استطاع العرب فى الأندلس أن ينشئوا دويلات فى بعض المدن، ولعل أبرز هذه الدويلات دولة بنى حجاج فى إشبيلية، وهم قوم يرجع نسبهم إلى قبيلة لخم اليمنية، وكان لهم اعتزاز بنسبهم وعزوتهم السالفة، فأرادوا أن تكون لدولتهم ما لدولة الأمير الأموى من القوة والهيبة، فانبرى لذلك زعيمهم إبراهيم بن حجاج حيث توفر على حاشية وبلاط وحرس خاص، وكوَّن جيشًا هامًا، كما أحاط نفسه بنخبة من المفكرين والأدباء استقطبهم بهباته وعطاياه، وبذلك شجع العلوم والفنون والآداب، فمن ذلك أنه استقدم "قمر" البغدادية المغنية إلى إشبيلية، وكان من رجال حاشيته ابن عبد ربه الأندلسى صاحب كتاب "العقد الفريد"، وهكذا ظلت دويلة بنى حجاج قائمة حتى قضى عليها عبد الرحمن الناصر، كما قضى على مثيلاتها من الدويلات العربية فى الأندلس.

ب ـ الدويلات البربرية

من أبرز هذه الدويلات كذلك دولة "بنى ذى النون" البربرية، وكان يتزعمها

بربرى يدعى "موسى"، اشتهر بالقسوة والغلظة، وقد ورث أبناؤه الثلاثة من بعده هذه الصفات، إذ خلع موسى هذا وخلفاؤه طاعة بنى أمية واستقلوا بالولايات الغربية، وجنوب البرتغال، كما احتلوا بعض المدن الهامة، مثل مدينة جيان، وعاثوا فى كثير من البلاد فسادا، كما خربوا ونهبوا وقتلوا، بيد أن مجىء عبد الرحمن الناصر إلى مركز السلطة قد قضى على هذه الشراذم، وجعلها أثرا بعد عين.

جـ- الدويلات المولدية

أما هؤلاء "المولدون" فقد استولوا بدورهم على ولاية الجرف فى الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة، واستولوا كذلك على عدد عظيم من الولايات المستقلة، يتزعمهم فى هذا الأمر ابن حفصون ذى القوة والمراس، وكان قد نزل كورية، وأقام بها حصنا، محرضا سكان الجبال على الثورة ضد الحكم المركزى فى قرطبة الأموية، وجرد كتائبه الحربية للاستيلاء على كثير من المدن المتاخمة لقرطبة ذاتها، حتى قيل إنه لم يبق بينه وبين هذه العاصمة إلا كيلومترات محدودة، ولطالما خرج إليه الأمير عبد الله الأموى بجيشه، ولكنه لم يستطع القضاء عليه، وهكذا ظل ابن حفصون فى جبروته وسلطانه حتى سوَّلت له نفسه أن يرتد عن الإسلام، وذلك أملا فى أن ينضم إليه النصارى، ولكن خاب أمله وظنه، إذ سارع المسلمون بالانفضاض من حوله، كما أن النصارى لم ينحازوا إليه، وأخيرا قضى عليه عبد الرحمن الناصر عقب توليه الحكم.

لقد مُنيت الأندلس خلال تلك الفترة بتفكك وتمزق لم تشهده إلا عصر ملوك الطوائف من بعد، فقد تمزقت الدولة أشلاء، وكادت تتردى فى الهاوية خاصة بعد أن أصبح مُلك بنى أمية محصورًا فى قرطبة وأحوازها، ولكن إرادة الله تدخلت فى النهاية، إذ أتاح للأندلس أن تسترجع قواها، وتسترد وحدتها، فإن الأمير عبد الله أقدم فى آخر أيامه على عمل سياسى جرىء، إذ اختار لولاية العهد من بعده حفيده

عبد الرحمن وكان شابا فى الحادية والعشرين من عمره، محبوبا من الشعب ورجال القصر، تضافرت وسامته وكرم أخلاقه وقوة إدراكه على أن تجعل منه أميرًا محبوبًا، وحاكمًا نجح فى لم شعث تلك الأمة، فأعاد إليها وحدتها، وسار بها نحو الذروة التى وصلتها الأندلس(*).

(*) المصدر السابق، ص١٠٧.

عبد الرحمن الناصر

(٣٠٠ـ ٣٥٠هـ/ ٩١٢ ـ ٩٦١م)

يعتبر الناصر الذروة العليا من بين أمراء بنى أمية، فقد نال شهرة عالمية يومئذ وبُعد صيت، وانتشرت بمراكش أخبار طاعته، وعلت على منابر الأندلس كلمته، وتوحدت البلاد بعد انقسامها، حيث قضى على الثوار والمتمردين، وأسكت أصواتهم بعد أن تفاقم خطرهم فى عهد المنذر بن محمد، كما سبق أن أسلفنا، وبهذا تمهد ملك الناصر، فهادنه ملوك الغرب، وبعثوا إليه بسفرائهم محملين بالهدايا والتحف يخطبون وده، ويأملون فى سلمه، ونعمت الأندلس بحضارة لم تشهد لها مثيلا، فقد بلغت الحضارة الإسلامية فى الأندلس مبلغًا جعلها تصهر كافة الحضارات المتمدينة قبلها والمعاصرة لها فى قالب متميز، حيث أسهمت بالقدح المعلى فى حضارة الإسلام.

والحقيقة أن حضارة القرن الرابع الهجرى فى الإسلام شملت تاريخ ثلاثة أمراء: **فأولهم**: عبد الرحمن الناصر، **وثانيهم**: ابنه الحكم المستنصر، **وثالثهم**: رجل ليس من بنى أمية، ولكنه لا يقل عنهم سياسة ودهاء، حتى أصبح يمثل الأندلس بجده وحزمه، ألا وهو المنصور محمد بن أبى عامر.

لقد بلغت الأندلس على عهد الناصر ذروة التقدم والرقى، فقد ارتفع فيها مستوى المعيشة، وازدهرت ثروات المدن، وأصبحت قرطبة مثوى الحياة الحضارية

الراقية، وملاذ الكتاب والأدباء والشعراء، وموطن أهل الفنون والآداب، بحيث كانت العاصمة رمزًا للرخاء والثروات التى لم يعهدها التاريخ لدى عاصمة أخرى من قبل، بل ولا من بعد.

وإذا كان طول العمر فى تاريخ الملوك مما يعين على إدراك الغايات وبلوغ الأهداف، فإن عبد الرحمن الناصر قد توفر على ذلك، فقد تسنى له أن يجلس على عرش السلطة حوالى خمسين عاما متتالية، وكانت سنه يومئذ لا تتجاوز العشرين عامًا، مما أتاح له ذلك إنجاز المشاريع الضخمة التى عمَّتْ بلاد الأندلس، وخص منها قرطبة بالنصيب الأوفر.

هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، حفيد لهذا الأخير، أما أبوه محمد فقد مات فى ظروف مريبة، ويقال إن الابن اشترك فى مؤامرة ضد أبيه فقتله، واتخذ من عبد الرحمن ابنًا له، بحيث أولاه عناية خاصة، وصار أثيرًا لديه من دون أهل بيته، فلما توفى الأمير بويع عبد الرحمن من بعده بالإجماع، بالرغم من أنه كان لعبد الرحمن أعمام أحق منه بالإمارة شرعًا وعرفًا، ولكنهم لم يطلبوا هذا الحق طواعية واختيارًا؛ لأن الظروف الداخلية والخارجية لبلاد الأندلس يومئذ كانت تُملى على الجميع إنكار الذات، وطرح المطامع الشخصية جانبًا، حيث كثر الخارجون والمتمردون على السلطة المركزية، وطمع فى الأندلس أعداؤها من الخارج، فتعين على من يلى الحكم أن يضحى بجهده ووقته على أبعد الحدود.

سياسته الداخلية

لا شك أن الأمير عبد الله جد الناصر، كان قد استنفد قوى الدويلات التى تمردت على البيت الأموى، من أمثال ابن حفصون وعبد الرحمن بن مروان، وحكام كل من إشبيلية ومرسية، فلما تولى عبد الرحمن ألفى النفوس ذات استعداد للطاعة ونبذ المؤامرات، فالظاهر أن عصيانهم هذا كان من قبيل استكثار السلطة على الأمير عبد الله، والاستعلاء عليه، فلما توفى وجاء عبد الرحمن لم يعدْ لدى هؤلاء ما

يدعو إلى الاستمرار فى المعاداة والتمرد، وكان من حسن حظ الأندلس عامة وحظ عبد الرحمن خاصة، أن أولئك الحكام العصاة سرعان ما انقادوا إليه، وهذا يرجع أولا وقبل كل شىء إلى ما كان يتمتع به الناصر من فهم دقيق لنفسية هؤلاء، فكانت قراراته تصدر موائمة لما يدور بخلدهم. كما أن هذا التمزق للأندلس كان قد ترك تأثيرًا بالغًا على اقتصاد البلاد، حيث تعذرت عملية التنقل بين المدن، إضافة إلى تربص الدويلات المفككة بعضها ببعض، مما يعرقل أمور التجارة ويساعد على كسادها، إضافة إلى فقدان عنصر الاستقرار والأمن، فى ظل تلك الحروب التى حرمت الناس من الاطمئنان على أنفسهم وأموالهم، فهكذا كان المواطنون قد ملُّوا مثل هذه الحياة، وتاقت نفوسهم إلى وحدة تتمتع بالاستقرار والنظام، لذلك أدرك الناصر ما يعتمل فى نفوس الأندلسيين، فكانت سياسته، والحالة هذه، أن يعمل على تركيز السلطان بيده، وتوحيد صفوف الأمة، وسار على منوال سياسة جده معاوية "لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت، لأنهم إذا شدوا أرخيت، وإذا أرخوا شددت". فاللين فى موضع اللين، والشدة فى موضع الشدة، ولكنه كان يفضل جانب اللين فى معظم الأحيان ليكسب رضا الجميع، وخاصة أولئك الخصوم، الذين أخذ على عاتقه أن يستميلهم إلى جانبه، فمهد لهم طريق الاستسلام له، حيث أصدر ظهيرًا ساميًا إلى كل خارج عن طاعته فى مختلف النواحى، وكان مضمون هذا الظهير أن من يقدم الطاعة والولاء فإنه سيحقق ما يبتغيه من جاه وتوفير للعيش الرغد، وذلك تحت لواء الإمارة المركزية الأموية، ومن لم يستجب فالويل والثبور له من قريب، فكان لهذا الظهير أثره البالغ لدى هؤلاء المتغلبين، والذين كانوا من الضعف حينئذ بمكان، حيث كانوا من بقايا أسر قديمة، ضَعُفَتْ وذهب ريحها.

مشاكل عبد الرحمن الناصر الخارجية

١ـ الخطر الفاطمى

ظهرت الدولة الفاطمية فى المغرب فجأة ودون مقدمات، مستندة إلى انتسابها وادعائها إلى البيت النبوى الكريم، فكان هذا وسيلتها للتأثير فى قلوب المسلمين وخاصة عامتهم، فاستجابت لدعوتها جماهير غفيرة، وعلى رأسها قبائل مغربية مشهورة، إما تبركًا بها، أو طمعًا فى مكاسب شخصية من وراء هذا الانضمام، وتعد قبيلة "كتامة" القوية، برجالها وجاهها وشجاعتها فى مقدمة القبائل التى انحازت إلى الفاطميين.

زحف الفاطميون إلى تونس حيث استولوا عليها، واتخذوها قاعدة لدعوتهم ثم زحفوا على المغرب الإفريقى حتى وصلوا إلى أرض السوس جنوبًا، وقد استطاعوا ـ بفضل جيوشهم البرية، وأسطولهم البحرى القوى ـ أن يسددوا ضربات إلى الجزء الغربى من البحر المتوسط، كما أخافوا سواحل أوروبا الجنوبية وسواحل الأندلس الشرقية.

لقد كان على الأمويين الأندلسيين أن يحسبوا ألف حساب لهذه الحركة الجديدة، والتى ولدت كأقوى ما يكون، خاصة أن دعواهم الانتساب إلى السيدة فاطمة بنت النبى ﷺ، كان لها تأثير السحر فى النفوس، كما أنهم نادوا بإمامتهم لكافة المسلمين، وفى سبيل ذلك بعثوا بدعاتهم إلى عدة أقطار من العالم الإسلامى؛ لإعلان أمرهم

والدعاية لحركتهم، وكان هؤلاء الدعاة على جانب عظيم من الدهاء والفهم والذكاء، فمن هؤلاء العالم الجغرافى المعروف "ابن حوقل"، والذى قصد الأندلس لهذا الغرض، وبعد عودته قدم تقريرًا إلى الخليفة الفاطمى، وفيه يصف مدن شبه الجزيرة بأنها "بلاد غنية، كثيرة الخيرات، غير أن حكومتها ضعيفة"، مشيرا بذلك إلى إمكان غزوها والاستيلاء عليها، وكانت انتصارات الفاطميين قد وصلت إلى أسماع الأمويين فى الأندلس، وأن هؤلاء تتوق نفوسهم إلى الاستيلاء على الأندلس، الأمر الذى أخاف بنى أمية، وأقلق بالهم، مما جعل عبد الرحمن الناصر يفكر فى إنشاء خط دفاعى أمامى، وذلك فى بلاد المغرب، فأخذ يُحرض القبائل البربرية ليشغل الفاطميين عنه، ولئلا يَدَع لهم فرصة للوثوب ضده، وركز الناصر على تأييده هذا فى مدينتى طنجة وسبتة فى شمال المغرب.

ومن زاوية أخرى نرى الناصر يؤمن بلاده شر غارات الفاطميين، عندما شرع فى إنشاء أسطول حربى، وذلك لتأمين سواحل الأندلس من غارات الخطر الفاطمى البحرية، غير أن اتجاه الفاطميين الرئيسى لم يكن منصرفًا نحو المغرب والأندلس، وإنما كان همهم الاستيلاء على قلب العالم الإسلامى فى الشرق، ثم يستطيعون بذلك مواصلة الجهاد فى سبيل إخضاع العالم أجمع تحت سلطان إمامتهم، التى كانوا يرون أنها يجب أن تحكم العالم كله، وكان اتجاههم هذا إلى المشرق هو الذى أنقذ الأندلس من خطرهم المباشر عليه، وإن كان هذا الخطر لم يزُل تماما بعد انتقالهم إلى المشرق(*).

٢ـ خطر الدول النصرانية

من المعلوم أن العرب عندما فتحوا شبه الجزيرة الأيبيرية كانوا قد تركوا بعض المناطق الشمالية دون غزو، وذلك لطبيعة موقعها من حيث برودتها ووعورتها وندرة الخصوبة بأرضها، وبذلك تركوا النصارى بها أحرارا، ولكن هذا التفكير من جانب العرب نحو تلك المنطقة لم يكن فى صالحهم مستقبلا، فقد صارت هذه

(*) المجمل فى تاريخ الأندلس، ص٩٥.

البقعة نقطة الانطلاق لحروب الاسترداد الإسبانية المعروفة تاريخيًّا، والتى تمكنت القوى النصرانية من خلالها من الاستيلاء على كافة مدن شبه الجزيرة من أيدى المسلمين واحدة تلو الأخرى، حتى سقطت آخر معاقل الإسلام فى الأندلس (مملكة غرناطة) فى يد الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا بالتسليم، وذلك فى ٢ يناير ١٤٩٢م.

لقد انتهز النصارى بادئ ذى بدء نشوب الخلاف بين العرب والبربر، ليقوموا بأول غارات ضد المدن الأندلسية، ووصلوا بملكهم إلى ضفاف نهر دويرة، واحتلوا مدينة ليون، واتخذوها عاصمة لهم، حيث عرفت بمملكة ليون، ومنها أخذوا يزحفون شيئا فشيئا نحو المناطق المحيطة بها، وخاصة تلك المناطق التى خلت بنزوح البربر، أولئك الذين تخلوا عن أماكن تواجدهم الشمالية بعد أن لحقتهم الهزائم من العرب، كما أن بعض أولئك البربر قد نزحوا إلى المغرب، فعادوا من حيث أتوا.

امتد ملك مملكة ليون إلى مدينة "سمورة"، التى أعاد بناءها ملكهم ألفونسو الثالث، وقام بتحصينها ليواجه بها غزوات المسلمين التى كانوا يقومون بها ضد النصارى، ولكن المسلمين كانوا قد اقتحموا هذه المدينة وخربوها عدة مرات.

هذا من الجهة الغربية لشبه الجزيرة، حيث امتدت المملكة الليونية فى عصر ألفونسو الثالث إلى نهر دويرة، أما من الجهة الشرقية من شبه الجزيرة، فقد وصلت الممالك النصرانية إلى الثغر الأعلى الأندلسى فيما بين نهر إبرو ونهيراته وجبال البرانس. ومعنى هذا أن كافة المناطق التى استقر بها النصارى واستقلوا بها، كانت المناطق الجبلية عموما والتى يصعب اقتحامها من لدن المسلمين، كما يضاف لحصانتها عامل جغرافى هام، وهو أنها تتاخم بلاد أوروبا النصرانية، التى كانت تمدها بمختلف المعونات، التى تعينها على صد غارات العرب، بل وعلى التوسع فى الاستيلاء على البلاد الأندلسية، كما كان هذا الاتصال له أثره المعنوى فى القرب من روما مقر البابوية الكاثوليكية.

لقد اعتلى عبد الرحمن الناصر كرسى الإمارة فى قرطبة، ووجد نفسه أمام عدو ذى خطر داهم، وهو الملك شنجو صاحب مملكة "نافار"، والذى يتوق للاستيلاء على الأراضى الإسلامية، كما كان "أردينو" ملك "ليون" له نفس المطامع، على غرار سابقيه من ملوك النصارى، والذى تبع خطتهم، فاستولى على ماردة، التى تصدى له قائدها أبو العباس أحمد بن عبده، ودخل معه فى معركة شرسة استشهد على إثرها عام ٣٠٥هـ (٩١٦م)، ولكن رغم هذا الانتصار الذى أحرزه أردينو إلا أنه استشعر قوة الناصر، فرأى بدهائه وذكائه أن يعقد محالفة مع شنجو ملك نافار، ليهاجما الثغر الأعلى الأندلسى، وعندئذ صمم عبد الرحمن الناصر أن يقوم بقيادة جيشه بنفسه، وفعلا تصدى لهذين الملكين فى حملة ضخمة عام ٣٠٦هـ (٩٢٠)، حيث أمكنه استخلاص بعض المدن التى سبق أن سقطت فى أيدى النصارى، مثل: كاركاسو، وتطيلة، وأسماء، ويذكر المؤخرون بهذه المناسبة أن الملكين النصرانيين كانا قد حاولا الاستيلاء على الحصون الإسلامية المتاخمة، منتهزين فرصة اقتحام الناصر لهذه المدن، ولكن عبد الرحمن سرعان ما فطن لأهدافهم، فنهض إليهم، حيث حال بينهم وبين أغراضهم، فلم يتمكنوا من تحقيق شىء من هذا القبيل.

ونرى بعد فترة أن "راميرو الثانى"، ملك ليون، يحاول أن يتحد مع أهل طليطلة على محاربة الناصر. والانقضاض على أراضى المسلمين، ولكن عبد الرحمن كان أسرع منه وأقدر، فقد تمكن من اقتحام المدينة، وضمها إلى ملكه، وبالرغم من ذلك الانتصار الذى حققه الناصر على "راميرو" إلا أن هذا الأخير ظل طيلة فترة حكمه محاربا لعبد الرحمن، فقد كان شجاعًا عنيدًا.

سياسة الناصر السلمية مع ملوك النصارى

لقد فرض الناصر الطاعة على أعدائه الثائرين ضده من العرب أو البربر، كما تمكن بشجاعته من إخضاع النصارى فى الشمال، بل إنه قد استمالهم إليه فى النهاية،

ويذكر المؤرخون فى هذا الصدد مثالا لذلك، فيقولون: إن ملك نافار "شنجو" طلب من الناصر أن يبعث إليه بطبيب يعالجه من السمنة المفرطة، فاستجاب عبد الرحمن لطلبه، وأرسل إليه طبيبا مختصا وهو "حسداى بن شبروط" الإسرائيلى، وكان أيضا معروفًا بالسياسة إلى جانب الطب، فكان سفيرا للناصر علاوة على مهمته الأساسية، فنجح فى هذه السفارة إلى حد بعيد، وكان من آثار ذلك قدوم وفد على قرطبة وعلى رأسه "شنجو" الملك نفسه، فأكرم الناصر وفادتهم، وبعث مع الوفد بالأطباء لمرافقة ملكهم.

كذلك نلاحظ أنه كثيرًا ما قام الناصر بإصلاح ذات البين بين ملكى ليون وأراجون، وأقر الصلح بينهما، الأمر الذى يشير إلى ما كان يتمتع به الناصر من ثقة وتقدير من أعدائه.

الناصر يعلن عن نفسه خليفة

لم يرَ عبد الرحمن الناصر نفسه بأقل شأنًا ولا سلطانًا من الخليفة الفاطمى فى إفريقية، أو الخليفة العباسى فى بغداد، فقد نظر إلى دولته، فرآها آية فى القوة والعظمة، فلماذا لا تكون فيها الخلافة كذلك؟ لهذا خلع الناصر على نفسه لقب "الخليفة"، وتسمى بأمير المؤمنين، وكتب إلى ولاته فى الأقاليم الأندلسية بذلك، فى رمضان سنة ٣١٦هـ (يناير ٩٢٩م)، وهكذا تحولت الإمارة فى قرطبة إلى خلافة، وهو تحول خطير على الساحة الأندلسية غير مسبوق، أملته الظروف والأحوال التى كان يجتازها العالم الإسلامى يومئذ، فقد كانت الدولة العباسية فى مرحلة الضعف والانحلال، والدولة الفاطمية غير مرضى عنها من أصحاب المذهب السنى، بالإضافة إلى كونها حديثة العهد، وأنها تعانى من عدم التجانس بين الأقطار التى تحت يدها، بينما الدولة الأموية تمتاز عنها فى هذا المضمار بوحدة الشعب الأندلسى، والتجانس بين الحاكم والمحكوم، فإذا ما وضعنا فى الاعتبار عامل التنافس التاريخى بين أمية وهاشم منذ الجاهلية ـ وهو عامل نفسانى ـ أدركنا فى النهاية أن عبد الرحمن

الناصر كان محقا فى تحويل الإمارة إلى خلافة فى ضوء المتغيرات والتطورات على الساحة الإسلامية، خاصة أن تأثير الخلافة على النفوس غير تأثير الإمارة بطبيعة الحال، فإعلان الخلافة من جانب الناصر هو من قبيل محاربة العدو بسلاحه، أى أنه أراد لنفسه أن يتكافأ مع عدوه فى قوة التأثير الروحى، ثم يبقى بعد ذلك التكافؤ المادى، ونحن وإن لم نشعر بأثر هذا التغيير فى أيام الناصر فإننا سنشعر به على أيام من جاء بعده، حينما تستقر أسس النظام الجديد وتستقر له الهيبة فى النفوس، وذلك على حد تعبير أحد المؤرخين.

على أى حال فإن هذا الاتجاه من الناصر لتحويل الإمارة إلى خلافة لما يدل على قوة الشخصية، وحسن السياسة، وقوة الإرادة فى تسيير دفة الحكم، وتدبير الأمور.

الناصر والناحية الإدارية

لا شك أن عبد الرحمن الناصر من أقدر الحكام المسلمين، وإن كان يميل فى معظم الأحيان إلى أن تكون السلطات فى يده، وذلك خلافا لما جرى عليه عرف حكام وأمراء الأندلس من قبله، والذين تعارفوا على إعطاء حرية واسعة لحكام الأقاليم فى إدارتها، بحيث لم يكن يربطهم بقرطبة سوى أداء الضرائب العامة والخراج، والمساهمة فى إعداد الجيوش للجهاد، وتنفيذ أوامر العاصمة العامة، انطلاقا من الطاعة المفروضة على كل ولاة الأقاليم نحو الحاكم العام، وعليه فيمكن تفسير اتجاه الناصر إلى تقليص نفوذ الحكام وحصر السلطة فى يده بما كان يراه من جنوح بعض الولايات إلى الاستقلال، أو قيام بعض الثورات والفتن، والخروج عن الطاعة الواجبة، الأمر الذى حَدَا به إلى حصر السلطات فى قبضته، ويستتبع ذلك القضاء على نفوذ الأسر البارزة ذات الجاه فى كافة نواحى الأندلس.

أما من ناحية الطابع العام للجيش، فقد لاحظ الناصر أن الجندى العربى أو البربرى كان يلتحق بالخدمة الحربية بدافع العصبيات، فرأى أن يكون التحاق الجند بالجيش كأفراد لا كعصبيات، ولكن هذا الرأى كان له رد فعل معاكس، فقد لوحظ

على عهد الناصر أن الانتصارات فيه كانت محدودة لهذا السبب، ومع هذا فقد استكثر الحاكم من عنصر الصقالبة فى الجيش تمشيًا مع سياسة القضاء على العصبيات، وهؤلاء نالوا حظًا وافرًا من الترقى فى الجيش، بالإضافة إلى توليتهم المناصب القيادية الهامة، مما كان له أسوأ الأثر فى نفوس العرب والأندلسيين، فقد تخلى الكثيرون من القواد العرب والأندلسيين عن مواقعهم فى الجيش، حيث لم يهضموا الخدمة تحت إمرة الصقالبة الأجانب، وقد أدى هذا التخلى منهم إلى الهزيمة الكبرى فى المعركة التى دارت بين النصارى والمسلمين، والتى عرفت بموقعة الخندق.

ومع هذا نرى الناصر معذورا إلى حد ما فى استبداده بالأمور، لما كان يراه من طابع العنف العام لدى الأندلسيين، ونزوع بعض الولاة إلى الاستقلال أحيانًا، وليقضى على عنصر العصبيات.

المنشآت العمرانية على عهد الناصر

لقد شهد عصر بنى أمية، فى الشرق والغرب، ميلهم لفن العمارة، وبذلهم فى سبيل ذلك الكثير من الجهد والمال. والناصر، من بين هذه الأسرة، كان له غرام كبير بإنشاء العمائر الفخمة، فقد أضاف إلى مسجد قرطبة إضافات هامة، تميزت بالزخارف الرائعة والنقوش الفريدة.

أما درة منشآت الناصر فهى "مدينة الزهراء"، التى أقامها على بعد سبعة كيلومترات تقريبا من قرطبة، على الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير، فوق جبل العروس الجنوبى، وقد بدأ إنشاؤها عام ٣٢٥هـ ، ولم يتمكن الناصر من إتمامها فأكملها ابنه الحكم المستنصر، واستغرق بناؤها قرابة أربعين عامًا، وهى عبارة عن مدينة ملكية، على نحو ما جرى عليه ملوك العصور الوسطى الإسلامية، وخاصة فى ذلك العهد حيث كانت الزهراء تضم قصر الملك بأجنحته المعتادة، بالإضافة إلى

مساكن الحاشية والحرس الخاص، ومخازن الذخيرة والأسلحة، وهى كما وصفها الإدريسى المؤرخ "كانت متدرجة إلى ثلاثة أقسام، كل قسم ينحط عن الذى يليه". لآثارها أهمية عظيمة؛ فهى اليوم مقصد السياح والباحثين، بعد أن صارت ـ بطبيعة الحال ـ إلى أطلال بفعل السياسة الإسبانية التى كانت تتبعها فى حروب الاسترداد، إذ نالها الهدم والتدمير كمدينة ملكية إسلامية، ويحاول الأثريون الإسبان أن يعيدوا بعض أجزائها إلى ما كانت عليه، ولا سيما المدخل الرئيسى للقصر الملكى، ولكن هيهات!!

وفاته

توفى عبد الرحمن الناصر عام ٣٥٠هـ (٩٦١م) بعد أن حكم حوالى خمسين عامًا، وهى فترة من أطول الفترات التى تولاها أمراء المسلمين بالأندلس، وقد أتاح له ذلك الاستفادة من التجارب التى خاضها، كما أتيح له أن يقضى على الفتن والمنازعات التى نشبت على عهده.

فقد قضى الناصر على الخارجين عليه، وردَّ غارات النصارى عن المدن الأندلسية، وبذلك صفا له الجو خلال النصف الثانى من فترة حكمه، وذلك بفضل السياسة التى انتهجها تجاه الرعايا من جهة، وتجاه أعدائه من النصارى من جهة أخرى، فقد رأينا كيف نال ثقة الثائرين عليه، وكيف نال أيضا ثقة ملوك النصارى، لدرجة اتخاذهم حلفاء له، فكانوا يلجأون إليه ليقضى فيما بينهم، كما كانوا يستشيرونه فى بعض أمورهم الهامة.

هذا، ويذكر المؤرخون أنه رغم حكمه البالغ حوالى خمسين عامًا، إلا أنه وجد مكتوبا بخط يده أن أيام السرور التى صفت دون مكدر كانت أربعة عشر يومًا، مما يتضح لنا منه مقدار الجهد المتواصل الذى قام به الناصر طيلة فترة حكمه، على الصعيدين الداخلى والخارجى.

الناصر فى نظر المستشرقين والباحثين

لقد تناولت عبد الرحمن الناصر كثير من أقلام المستشرقين والمؤرخين والباحثين، وذلك بدافع من الإعجاب والتقدير لتلك الشخصية التى تركت بصماتها واضحة فى التاريخ الإسلامى عامة وفى التاريخ الأندلسى خاصة، بفضل تلك الجهود الحربية والإدارية والسياسية والحضارية التى اضطلع بها طيلة فترة حكمه.

يقول المستشرق بروكلمان: "قُدِّر للخليفة الناصر أن يصبح أعظم الأمراء الأمويين فى الأندلس الإسلامية، وأن يحكم نحوًا من خمسين سنة، عمل فى أوائلها على أن يُتم ما بدأه جده من إقرار السلام فى ربوع البلاد، وسط مصاعب هائلة، ليتفرغ بعد ذلك لتوطيد سلطانه فى الخارج". والحق أنه استطاع بما أبداه من حزم وكياسة أن يكتسب ولاء المقدمين من رجال الأرستقراطية العربية فى مقاطعتى جيان(*) والبيرة، واستنزل العصاة من صياصيهم ولم يبقَ فى سنة ٩٣٠م سوى طليطلة وحدها التى بقيت محتفظة باستقلالها، ولكن هذه المدينة الجمهورية التى بقيت متمردة طوال ثمانين عامًا، لم تلبث أن انطرحت بدورها على قدمى الأمير بعد حصار دام سنتين(*).

ينوه المؤرخ المغربى المراكشى بالناصر فيقول: "وأمكن للخليفة الناصر الارتفاع بنفسه وبالأندلس الإسلامية إلى عصر الزهو، بفضل ما توفر له من الفضائل، أوجزها حاجبه موسى بن حدير بقوله: "ما رأيت أذكى منه، كنت ـ والله ـ آخذ معه فى الشىء تحليقًا على سواه حتى أخرج إليه، فيسبقنى لمرادى ويعلم ما بنيت عليه

(*) جيان مدينة قديمة حصينة موقعها على بعد حوالى ٩٧كم شمال غرناطة، نزلها أهل قنسرين أيام الفتح الإسلامى، وكان أهل الشام قد نزلوا البيرة وسموها دمشق لشبهها بها (انظر نفح الطيب، للمقرى ١/ ٢٣٧).

(*) تاريخ الشعوب العربية الإسلامية، بروكلمان: ٢٩٣، ٢٩٤.

تدبيرى، وكان له عيون (جواسيس) على ما قرب وبعد وغر وكبر، وكان معروفا بحسن العهد، وبذلك انتفع فى استنزال المتغلبين"(*).

ويُبرز المقرى الدور الهام الذى نهض به وزراء الناصر، أولئك الذين أصابه التوفيق فى اختيارهم، وفى مقدمتهم (أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شهيد) و(عبد الملك بن جهور)، فيقول: "ومما زين الله به دولة الناصر وزراؤه، الذين من جملتهم ابن شهيد مفخر الإمامة وزهر تلك الكمامة، وحاجب الناصر عبد الرحمن، وحامل الوزارتين على سموهما فى ذلك الزمان، استقل بالوزارة على ثقلها، وتصرف فيها كيف شاء، على حد نظرها والتفات مقلها، فظهر على أولئك الوزراء، واشتهر مع كثرة النظراء، وكانت إمارة عبد الرحمن أسعدُ إمارة، بَعَّدَ عنها كل نفس بالسوء أمارة. فلم يطرقها صَرَف، ولم يرمُقْها محذور بطرف، ففرّغ بعض الناس فيها هضاب الأمانى ورباها، ورتعت ظباؤها فى ظل ظباها. وهو أسد على براثنه رابض، وبطل أبدًا على قائم سيفه قابض، يُروّع الروم طيفُه، ويجوس خلال الديار خوفه، ويروى بل يحسم كل آونة سيفه، وابن شهيد ينتج الآراء وينقحها، وينقذ تلك الآمال، ويكسو الأولياء بذلك الإجمال"(*).

ثم يعود بروكلمان ليعدد لنا تلك المفاخر الحضارية التى تميز بها عهد الناصر فيقول: ".. وتميز عهد الخليفة الناصر على تطاوله بالاستقرار الداخلى، فعرفت الأندلس تَفَتُّح حضارة زاهية أثارت إعجاب أوروبا فى العصر الوسيط، ذلك أن الزراعة والبستنة والتجارة والصناعة، انتهت كلها إلى درجة من الازدهار بعيدة، فقد زرع العرب المسلمون الحبوب وأدخلوا إلى أوروبا زراعة النخيل، ولا تزال بقايا حدائقهم ماثلة إلى اليوم فى حقول النخيل جنوب مقاطعة بلنسية، وامتازت الأندلس الإسلامية بصناعاتها اليدوية التى تعتمد على المعدن والجلد بصورة

(*) المغرب فى حلى المغرب، تحقيق د. شوقى ضيف.
(*) نفح الطيب ١/ ٣٨٠.

خاصة، ولا يزال الجلد القرطبى حتى اليوم يخلد اسم العاصمة الأندلسية الإسلامية فى السوق العالمية.

والحق أن دخل الدولة السنوى ـ من طريق الضرائب والمكوس ـ بلغ فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٦.٤٥٠.٠٠٠) دينارا، وفى بعض الروايات: أن ثلث هذا المبلغ كان يرصد لتغطية نفقات الدولة الجارية، فى حين كان الخليفة يدخر ثلثه الثانى فى خزائنه، وينفق الباقى على مشروعات البناء، التى أحلته منزلة جديرة بأعظم رجال العمران فى الإسلام(*).

(*) تاريخ الشعوب الإسلامية، بروكلمان: ٢٩٦.

الحكم المستنصر

(٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٨٦١-٨٧٦م)

تولى الحكم بالأندلس وسنه تناهز الأربعين، وكان أبوه يشركه فى بعض أمور السياسة، ليتمرس بشئون الدولة ومقتضياتها، ولقب بالمستنصر، ولم يتجاوز حكمه فترة ستة عشر عامًا، وقد أشرف فى حياة والده على بناء "الزهراء"، فقام بمهمته هذه خير قيام.

اشتهر الحكم بحبه للعلم والعلماء، واقتنائه للعديد من الكتب فى مختلف ألوان الثقافة، وقد كان لاتجاهه العلمى هذا ومبالغته فيه أثر واضح فى التخلى عن بعض مهامه السياسية، ولكن ذلك لم يترتب عليه ضرر بالغ، حيث إن والده قد أورثه الدولة وهى أتم ما تكون استقرارًا وأمنًا، كما كانت الخلافة قد استقرت هيبتها فى النفوس على الصعيدين الداخلى والخارجى.

الأحداث الخارجية على عهده

تذكر المؤرخات أن الناصر كان قد عقد معاهدة مع نصارى الشمال عام ٣٤٩هـ، وبمقتضاها يلتزم هؤلاء بتسليم بعض الحصون على الحدود الفاصلة بين الطرفين، ولكن النصارى لم يوفوا بعهدهم بعد أن اعتلى المستنصر كرسى الخلافة، ظنًا منهم بأنه هين لين، وأنه ليس على شاكلة أبيه، فأرسل إلى هؤلاء النصارى جيشًا اضطرهم إلى تنفيذ اتفاقيتهم مع والده.

كذلك نرى أن الأدارسة فى المغرب قد استغلوا فرصة انتقال الفاطميين إلى مصر، ومحاولتهم الاستقلال بالحكم، فبعث إليهم هم الآخرون بجيش كبير قضى على سلطانهم، وأنهى حكم هذه الأسرة بالمغرب، وجاء بمن بقى من الأدارسة إلى قرطبة، فكان هذا آخر العهد لهذه الأسرة التى حكمت المغرب الأقصى فى أواخر القرن الثانى الهجرى، كأول دولة تنسلخ عن الخلافة العباسية فى هذه المنطقة.

الحركة الثقافية فى عهد المستنصر

لقد بلغت النهضة العلمية فى عصر الحكم ذروتها بالأندلس، حيث كان يرسل فى طلب الكتب من بقاع شتى، وخاصة من الشرق، فكان رسله يجمعون له نوادر المخطوطات فى مختلف العلوم والفنون والآداب، باذلاً فى سبيل هذا الأموال الطائلة، حتى لقد بلغ عدد الكتب بأنواعها بمكتبته الخاصة نحوًا من ٤٠٠.٠٠٠ كتاب، وقد تحدث عنه فى هذا المضمار ابن خلدون، فقال: "إنه كان محبًّا للعلوم، مكرما لأهلها، جامعا للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله". كما روى أنه بعث فى كتاب الأغانى إلى مصنفه أبى فرج الأصفهانى ألف دينارٍ من الذهب، فبعث إليه بنسخة من الكتاب قبل أن يخرجه من العراق.

كذلك لقد عمرت خزائن المكتبات فى المدن الأندلسية بألوان شتى من الكتب فى مختلف نواحى الثقافة، بحيث يمكن مقارنة عهد المستنصر العلمى بعهد الخليفة المأمون العباسى، إلا أن المستنصر ينفرد بأنه كان ميالاً إلى النقد والتعليق على معظم الكتب التى بحوزته، بحيث كانت هذه التعليقات من الأهمية والدقة بمكان، بيد أن معظم هذه الثروة من الكتب قد نهب على أيدى البربر عندما دخلوا قرطبة ودمروها، والبعض الآخر من هذه الكتب كان قد أمر المنصور محمد بن أبى عامر بإحراقها، ولا سيما منها كتب الفلسفة، إرضاءً للفقهاء الذين لم يرضوا عنها، فقام بفعل ذلك لاستمالتهم إليه سياسة منه.

هذا، وكثيرًا ما قام المستنصر بعقد حلقات للدرس والمناقشة فى قصره، واستقدم

العلماء المختصين، وتناقش معهم على قدم المساواة، ومن هؤلاء العلماء الذين استقطبهم إلى مجلسه أبو على القالى، عالم اللغة المشهور، حيث بالغ فى إكرامه، وقد ألف هذا العالم كتابه الأمالى فى اللغة، وهو عبارة عن المحاضرات التى كان يلقيها على طلبته فى جامع قرطبة. ولم يكن هذا الاهتمام من المستنصر قاصرًا على قرطبة وحدها، بل تعداه إلى أنحاء شتى من الدولة، فقد كان نَشْرُ الثقافة شاملاً لكل من الثقافة الخاصة، والثقافة الشعبية، فقد عَمَّ انتشار المكتبات والمدارس والمعاهد فى كافة المدن، وكان التعليم فيها بالمجان، فقصدها التلاميذ والطلاب من كافة الطبقات.

وتجدر الإشارة فى هذا المقام إلى أن هذا الاهتمام البالغ من المستنصر بالناحية العلمية، لم تتأثر به هيبة الدولة لدى الأعداء من النصارى فى الخارج، فقد بقى للخلافة الأموية صولتها التى يخشاها من يفكرونَ فى الاحتكاك بها، إلا أن هذا التفرغ العلمى قد كان له ردٌّ فعل سيِّئ لدى الأسرة الأموية نفسها، إذ يذكر المؤرخون أن الحكم قد انصرف عن تنشئة ابنه هشام التنشئة المفروضة فى حق ولى العهد، كذلك يؤثر عن الحكم انصرافه عن معظم الشئون السياسية، وتفويضه للوزراء وكذا القواد التصرف فى كثير من الأمور، فبرزت لذلك مراكز قوى لم تكن موجودة فى عهد الناصر، واستبد هؤلاء بالحل والعقد، ومن هؤلاء حاجبه "المصحفي"؛ فقد كان مفوضًا فى شئون السياسة والإدارة، ولم يكن يرجع إلى الخليفة إلا فى قليل من الشئون، وقد كان لهذا أثر سيِّئ للغاية، ذلك أن بروز هذه الطبقة كان على حساب السلطة المركزية، وقد تجلى هذا الأثر فى عهد ابن الحكم وولى عهده هشام.

وفاته

توفى الحكم المستنصر عام ٣٦٦هـ ، وكان قد جمع أهل الرأى من مستشاريه وأصحاب النفوذ والقوة، وأشهدهم على عهد ضمنه ولاية العهد لابنه هشام،

الذى لم يكن يومئذ قد جاوز العاشرة من عمره، على أن يعاونه وزراؤه فى مهمته. ولكن الظروف سارت من بعد على غير ما كان يأمل الحكم، فقد صار الأمر شيئا فشيئا إلى شخصية ليست من البيت الأموى، وإنما هى شخصية ذات طموح لا حدود له، بحيث لم يكن يرضى بغير الملك بديلاً، ذلكم هو الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر، وعليه فيمكن القول أن الدولة الأموية قد انتهت حكمًا برحيل المستنصر؛ لأن الخلفاء من بعده كانوا رموزا لا أكثر، وكانت دولة بنى أمية كالرجل الذى فقد صحته، وبقى ينازع الموت للبقاء. وانتهت الأسرة فعليًّا عام ٤٢٢هـ (١٠٣٠م).

العامريون
الحاجب المنصور محمد بن أبى عامر
(٣٦٦_٣٩٣هـ/ ٩٧٦_١٠٠٢م)

نسبه

هو محمد بن عبد الله بن أبى عامر المعافرى القحطانى، دخل أجداده القدامى الأندلس مع الفتح الإسلامى، حيث استقرت الأسرة فى قرية "طرش" قرب الجزيرة الخضراء، ثم قدم المنصور إلى قرطبة وهو شاب أواخر عصر الخلافة الأموية، فالتحق بجامعة قرطبة طلبًا للعلم، فدرس القرآن والحديث وعلومهما، إضافة إلى العلوم الأخرى التى كانت تدرس يومئذ، وقد تميز هذا الشاب من بين زملائه بذكائه وطموحه وأحلامه الواسعة، فكان يحدث أقرانه بآماله العريضة، وأنه يتطلع إلى أن يصبح يومًا ما حاكمًا للأندلس.

نشأته

لقد امتهن فى مطلع حياته حرفة تحرير الشكاوى للجمهور، حيث اتخذ لهذا الغرض دكانًا صغيرًا قرب قصر الخلافة، وامتاز فى علمه هذا بذكاء مفرط، ومهارة نادرة فى معاملة الجمهور، فنال إعجاب القاصى والدانى، لا سيما القائمين على خدمة القصر، أولئك الذين هيأوا له فرصة اللقاء بالسيدة "صبح"، زوجة الحكم

المستنصر ووالدة ابنه هشام، حيث لمحت فيه الذكاء والحصافة والفطنة، فوكلت إليه مهمة تصريف شئونها فيما يتعلق بإدارة ضياعها وأموالها، فنهض بأمورها على خير ما يرام، الأمر الذى حَدَا بها إلى مكافأته على ذلك، وكان أن طلبت من زوجها الحكم أن يقلده بعض المناصب فى الدولة للانتفاع بخبراته، فولاه القضاء فى بعض الولايات، حيث تجلت كفاءته وبراعته فيما وكل إليه، ثم تدرج فى المناصب القيادية حتى تولى الوزارة أواخر أيام الخليفة الحكم المستنصر.

ولما توفى الحكم المستنصر نشب حينئذ النزاع على وراثة العرش، فكانت شخصية أبى عامر محط الأنظار فى الكلمة الفاصلة، بل كان المحور الذى تدور عليه السياسة فى الأندلس، وبالنسبة لأحلامه الكبار، نراه لا يقنع بمنصب وزارى ولا بقرب من بلاط الخلافة، بل إن طموحه امتد به إلى "حكم الأندلس"، حتى بعدما استقر الرأى على تولية هشام بن الحكم منصب الخلافة.

صفاته

لقد كان ابن أبى عامر مثلا فى الخلق الجاد، والإرادة القوية والعمل المتواصل، ولهذا نراه فى الوزارة يتطلع إلى أن يكون له النفوذ الأول فى الدولة، بل وطد نفسه على أن يصبح "الحاكم المطلق"، بل والفعلى، وليس للخليفة هشام إلا أن يوقع على المراسيم والقرارات الصادرة من ابن أبى عامر.

لقد وصفه المؤرخ ابن خلدون بقوله: ".. ثم سما لابن أبى عامر فى التغلب على هشام لمكانه فى السن، وظهر له رأى فى الاستبداد، فمكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها، وقتل بعضًا ببعض، وغلب على المؤيد هشام، فمنع الناس من الوصول إليه إلا فى النادر من الأيام يسلمون عليه وينصرفون، وأرضخ للجند العطاء، وأعلا مراتب العلماء، وقمع أهل البدع، وكان ذا عقل ورأى وشجاعة وبصر بالحروب، ودين متين، وتجرد لرؤساء الدولة ومن عانده وزاحمه، فمال عليهم، وحطهم عن

مراتبهم، وقتل بعضا ببعض، كل ذلك عن طريق هشام وخطه وتوقيعه، حتى استأصلهم، وفرق جموعهم، وأول ما بدأ بالصقالبة الخصيان والخدم، فحمل "الحاجب المصحفي" بنكبتهم فنكبهم، وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون، ثم أظهر بالقصر إلى "غالب" مولى الحكم، وصاهره ابن أبى عامر، وجعله قائد جيش الثغور، وبالغ فى خدمته والنصح له، واستعان به على "المصحفى" فنكبه، ومحا أثره من الدولة، ثم استعان على غالب بجعفر بن أحمد بن على بن حمدون وبمن معه من البربر، ثم قتل جعفرًا بممالأة ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذى النون، وأمثالهم من أولياء الدولة من العرب وغيرهم، ثم لما خلا الجو من أولياء الخلافة والمرشحين للرياسة رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدوة (أهل المغرب) من رجال زناتة والبربر، فرتب منهم جندًا، واصطنع أولياء، وعرف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبنى زروال ومكناسة وغيرهم، وقدَّم رجال البربر، وأخر رجال العرب، وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك، والاستبداد بالأمر، وبنى لنفسه مدينة لنزوله سماها "الزاهرة"، شرقى قرطبة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة، وقعد على سرير الملك، وأمر بأن يحيا بتحية الملوك، وتسمّى بالحاجب المنصور، ونفذت الكتب والمخاطبات باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر، عقب الدعاء للخليفة.

منجزاته

وعلى هذا نرى أن ابن أبى عامر قد تميز بإرادة منقطعة النظير، بالإضافة إلى شخصيته كقائد بارع، فهو كإدارى قد شق طريقه إلى إجلاء أعدائه عن المسرح السياسى، مستغلا سلطاته لمصلحة الدولة والشعب، كما أنه كان مثالا فى مواصلة العمل ليلاً ونهارًا، حتى لقد روى أن ساعات عمله بلغت فى اليوم الواحد عشرين ساعة!!

كان المنصور يباشر أمور الدولة بنفسه، كما كان يراقب نوابه شخصيًّا، علاوة على قيادة الجيوش أيضًا، زيادة على أعماله المدنية المعتادة.

ففى مجال الجيش نراه قد نظمه وفق أحدث الأنظمة يومئذ، وأشرف بنفسه على تدريباته، وحارب به خمسين معركة خلال فترة حكمه التى بلغت خمسًا وعشرين سنة، فلقد اعتاد أن يغزو فى العام الواحد غزوتين: إحداهما فى فصل الشتاء، والأخرى فى فصل الخريف، فهكذا اتجه المنصور بالبلاد اتجاهًا عسكريًّا، كما أنه لم يُهزم قط فى أية غزوة من غزواته.

أما الخليفة هشام فقد كان غارقًا فى ملذاته ولهوه مع غلمانه وجواريه، مما جعل ابن أبى عامر يحجر عليه، بل ويمنعه من مباشرة أمور الدولة، كما أنه لم يأمن على نفسه فى مثل هذه الأحوال، فلم يكن مقامه فى قصر الخلافة، وإنما ابتنى لنفسه مدينة ملكية مستقلة شرقى قرطبة سماها "الزاهرة"،ومن جانب آخر نراه قد نشر عيونه حول القصر الأموى لمراقبة هشام، أو من تسول له نفسه لقاءه من ورائه، إذ من أراد الاتصال بالخليفة فلا بد له من إذن خاص من المنصور، وهكذا حجب هشامًا عن الشعب، واستأثر بالسلطة من دونه، فلم يعد للخليفة من الأمر شىء سوى توقيع القرارات لا صياغتها، وإثبات اسمه على العملة النقدية، وذكره فى خطبة الجمعة لا أكثر.

نهاية العامريين

لقد عرفت الأندلس فى عهد المنصور ابن أبى عامر مجدًا يشبه الوهج المتألق الذى يشع ضوءه فى الأفق عند الغروب، ولكنه ما يلبث أن يتوارى سريعًا، ذلك أنه ما إن توفى المنصور حتى تولى بعده ابنه عبد الملك، والذى ورث عن أبيه صفات الحزم والشجاعة، وكانت فترة حكمه سبع سنوات فقط، (٣٩٢ ـ ٣٩٩هـ / ١٠٠١ ـ ١٠٠٨م)، كانت فى مجموعها رخاءًا، كما نراه يواصل حملاته الحربية ضد نصارى الشمال، فلما توفى خلفه أخوه عبد الرحمن، وكان

مستهترا ميالا إلى الملذات، خسيسا ماجنًا، حتى لقد بلغت الأحوال فى الأندلس على عهده حدًّا لا يطاق من الفوضى والفساد والاستبداد، وكادت تحدث خلال حكمه كارثة داخلية، إذ طمع فى السلطة الشرعية (الخلافة)، فى حين لم يجرؤ والده من قبل على المطالبة بها، رغم الفارق الكبير فى السلوك والسياسة بينهما، كما لم يطمع فيها أخوه عبد الملك، وبيان ذلك: "أنه طلب إلى هشام أن يعهد إليه بولاية العهد، ولما كان هشام هينًا لينًا فقد أجابه إلى طلبه، وكتب بذلك عهدًا، مضمونه أن الخليفة لم يجد من بعده من هو أصلح للخلافة من عبد الرحمن"، فكان هذا الحادث نذيرًا بنهاية العامريين، حيث اهتزت له أركان الدولة فى أشخاص قياداتها، وكبر على المضريين أن يحدث هذا الأمر الذى انتهى بالقبض على عبد الرحمن بمعرفة أحد خصومه، حيث فصل رقبته عن جسده، كما قتل صاحب شرطته، وخلع الناس هشامًا، وولوا مكانه محمد ابن هشام بن عبد الجبار، ولقبوه بالمهدى، الذى كان من وراء قتل عبد الرحمن.

وهكذا انتهت سلطة بنى عامر عام ٣٩٩هـ.

النظم الإدارية
فى العصر الأموى بالأندلس

لعل من المفيد قبل استعراض هذه النظم الإدارية، أن نتعرف على الدولة الأندلسية، وعلى الأجناس التى اشتملت عليها، وكيف كانت تتكون يومئذ.

من المعلوم أن إسبانيا ـ قبل الفتح العربى ـ كانت عامرة بالسكان، حيث كان بها بقايا من الرومان الذين قضى عليهم القوط الذين أصبحوا حاكمين للبلاد، كما كانت فيها عناصر من اليهود، ثم جاء الفتح العربى ومعه العنصر البربرى، بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير، وبهذا أضيف لعناصر السكان الأصليين عنصر العرب والبربر.

ثم وفد على الأندلس العنصر الصقلبى، وهم الذين جلبهم واستخدمهم الحكم الربضى، وهؤلاء قدموا من أوروبا، وهم طبقة من الرقيق المجلوبين بالمال، حيث استخدموا فى المجال العسكرى، بعد تنشئتهم حربيًّا، فكانوا الحرس الخاص للأمير أو الخليفة، ثد بدأت أعدادهم تكثر بمرور الوقت، حتى صاروا جالية قوية لها وضعها الخاص بحكم عملهم هذا.

وعلى هذا يتبين لنا أن بلاد الأندلس قد ضمت أجناسًا مختلفة، بل إن هذه الأجناس كانت تضم أنواعًا وألوانًا؛ فالعرب الفاتحون كان من بينهم القدماء

(البلديون)، الذين قدموا فى بداية الفتح، وينسبون إلى أهل الحجاز، ثم الشاميون الذين يتفرعون إلى فرعين (المضريين واليمنيين)، وهؤلاء بدورهم كانوا يتفرعون إلى قبائل، وكان الحال كذلك بالنسبة للبربر، فمنهم البرانس، ومنهم البتر، وكلاهما ينتمى إلى قبيلة مستقلة، وكل هؤلاء وفدوا إلى الأندلس بعصبياتهم القبلية، يضاف إلى كل أولئك عنصر "المولدين"، الذين هم ثمرة المصاهرة بين العرب والإسبانيات، علاوة على طوائف من النصارى الذين تعربوا لسانًا وعادات، ولكنهم بقوا على دينهم، وهؤلاء يعرفون بالمستعربين.

ومثل هذه العناصر المختلفة الأجناس ـ ذات المصالح والآمال المتضاربة ـ كان لها أثر بالغ فى ضعف الدولة على مدى العصر العربى لإسبانيا، بل إن هذه العناصر تكاتفت ـ كل على حدة ـ لتقضى على الدولة الأندلسية فى النهاية، وذلك بفعل تطاحنها وثوراتها التى كانت لا تخمد إلا لفترات محدودة، وهكذا كان الحال يتطلب حاكمًا قويًّا حازمًا يفرض إرادته، ويُملى سياسته ـ بالعدالة الاجتماعية ـ بين تلك الأجناس المتباينة، ويوجهها التوجيه المثمر لصالح الدولة، كالكفاح الحربى والإعمار الحضارى، على نحو ما رأينا من سياسة عبد الرحمن الناصر والحاجب المنصور.

ولقد كان من الممكن أن تتكاتف تلك العناصر وتصير قوة فعالة لو أن العقلية الإنسانية فى العصور الوسطى قد بلغت من الوعى درجة تؤهلها لذلك، كما هو الحال فى عصرنا الحاضر، بأمريكا على سبيل المثال، ولكن تلك العناصر من سكان الأندلس لم تكن كذلك حيث ظل كل عنصر مستقلا عن الآخرين فى معظم الأحيان، بل إن التناحر كان الطابع القائم على مر تاريخ البلاد الأندلسية، وعليه فقد استمرت الأوضاع غير مستقرة، وظلت كل جنسية محتفظة بكيانها العنصرى، ميالة إلى المشاحنات والمنافسات، مما أدى فى النهاية إلى ضياع الأندلس فى خضم تلك الصراعات.

أهم النظم الإدارية

١ـ الخلافة

وهى المنصب الأعظم فى الدولة، وقد كان أول من اتخذ لقب خليفة هو عبد الرحمن الناصر عام ٣١٦هـ ، أما من تولى قبله من الأمويين أو ممن سبقهم منذ الفتح الإسلامى (٩٥ ـ ٣١٦ هـ) فكانوا ولاة أو أمراء، وكان هؤلاء الولاة مبعوثين من طرف الخلافة الأموية فى دمشق، أو من طرف الولاة فى شمال إفريقية، فمن المعلوم أن الأندلس يومئذ كانت تابعة لوالى إفريقية، فموسى بن نصير كان واليا على إفريقية، وهو الذى تولى فتح الأندلس، وقد كان هؤلاء الولاة من العرب المضريين أو اليمنيين.

وعندما أنشأ عبد الرحمن الداخل الدولة الأموية فى الأندلس انسلخ عن الخلافة العباسية فى المشرق، فكانت الإمارة محصورة فى أسرة بنى أمية، ولم يتخذ عبد الرحمن الناصر أو الأمراء لقب "الخليفة"، وذلك إيمانًا منهم بقدسية هذا اللقب، وأن الخلافة وحدة لا تتجزأ، كما أن هذا اللقب لا يستحقه إلا من كان الحرمان الشريفان فى حوزته، واستمر الحال كذلك حتى جاء عبد الرحمن الناصر، ورأى ـ بعد فترة من حكمه ـ أن سلطانه قد قوى واشتد، ورأى أن الخلافة قد تجزأت بين العباسيين فى المشرق والفاطميين فى المغرب، وأنه لا ينقصه من الإمكانيات والسلطة عنهما شىء، لما رأى ذلك أعلن نفسه (خليفة)، وتسمى باسم (أمير المؤمنين)، وبقى هذا اللقب فى الأسرة الأموية بالأندلس حتى سقوط هذه الدولة.

إن الخلافة تعنى الرياسة العامة فى أمور الدين والدنيا، نيابة عن النبى ﷺ، وفى هذا يقول ابن خلدون: "والخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى، فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع

إلى اعتبارها مصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع، فى حراسة الدين وسياسة الدنيا"(*).

أما أبعاد سلطات الخليفة فى الدولة، فتختلف من عصر إلى آخر، بل ومن خليفة إلى آخر على مر التاريخ..، ومن المتفق عليه بين المؤرخين أن الخلفاء المتأخرين فى أية دولة لم يكن لهم عمل بالفعل فى إدارة الدولة، فطال لذلك حكمهم، حيث استلبه منهم الحجاب والوزراء، وانفرد هؤلاء بالحل والعقد فى شتى أمور الدولة(*).

وكان للخليفة فى الأندلس (بلاط) على غرار خلفاء بنى العباس فى المشرق، تزينه حاشية مرموقة، وله قصر متاخم لمسجد قرطبة الجامع، ولما أنشئت مدينة الزهراء خارج قرطبة صارت مدينة ملكية، وخاصة عندما استكملت إمكانيات المدن الملكية، فقد كان لها مسجدها الخاص، بالإضافة إلى كل ما تشتمل عليه، مثل تلك المدن، من الحدائق والمتنزهات، ومساكن الخدم والحشم والمماليك، وخزائن الذخيرة، وما يتصل بأمور الحراسة والدفاع عن المدينة.

هذا، ومن المعلوم أن حياة الخلفاء العباسيين فى بغداد، وحياة الخلفاء الفاطميين فى القاهرة، وحياة الخلفاء الأمويين فى قرطبة متشابهة، فالبلاط تحدث فيه مآس وروايات ومهازل، وفيه تُدبر الدسائس والمكائد، وتُنظم المؤامرات بين رجال البلاط ورجال الدولة. وكثيرا ما تشترك فيها النساء، وقد تصل إلى الخليفة نفسه، فيُغتال الخليفة أو يُعزل ويولى غيره، وعلى كل حالٍ فقد كانت الخلافة فى الأندلس صورة لما كانت عليه فى مصر وبغداد(*).

٢ـ الحجابة والوزارة

لقد كانت هاتان الوظيفتان ضمن النظم الإدارية فى الأندلس، ولا سيما فى عهد

(*) مقدمة ابن خلدون: ص ١٥٢- ١٦٦.

(*) الإسلام فكرا وحضارة، للمؤلف: ص٤٠ وما بعدها.

(*) المجمل فى تاريخ الأندلس، عبد الحميد العبادى، ص١٤٤.

الدولة الأموية، وإن كان المفهوم للحجابة والوزارة بالأندلس مخالفًا لما كان عليه الحال فى الدولة العباسية فى المشرق، وخاصة منصب الحجابة الذى كان يعنى عند العباسيين الوقوف بباب الخليفة، لحجب العامة عنه، وللاستئذان بوساطته عند الدخول عليه.

وهذا نص لابن خلدون فى (مقدمته) عن الحجابة والوزارة فى الأندلس يقول: "أما دولة بنى أمية فى الأندلس فأبقوا اسم الوزير فى مدلوله أو الدولة، ثم قسموا خطته أصنافًا، وأفرادًا لكل صنف وزيرًا، فجعلوا لحسبان المال وزيرًا، وللترسيل وزيرًا، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرًا، وللنظر فى أحوال الثغور وزيرًا، وجعل لهم بيت يجلسون فيه على فرش منضدة لهم، ينفذون أمر السلطان هناك، كل فيما جُعل له، وأفرد للتردد بينهم وبين الخليفة واحد منهم، وارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت، فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصوه باسم "الحاجب"، وهذا يشبه ـ إلى حد كبير ـ مجلس الوزراء فى عصرنا الحاضر.

ولقد كان منصب الحجابة بالأندلس شاملاً لاختصاصات واسعة، تشمل الشئون المدنية والحربية، ولا أدل على ذلك مما كان يتوفر عليه أصحاب هذا المنصب، من أمثال الحاجب المصحفى، والحاجب المنصور بن أبى عامر فى العصر الأموى، وغنى عن البيان أن منصب الحجابة والوزارة يأتيان فى المرتبة التالية لمنصب الخلافة لطبيعتهما ومسئولياتهما.

٣ـ القضاء

وهو من النظم الإسلامية المرموقة فى الدولة، بحيث نال اهتمام المؤرخين، فألفوا فيه الكتب المستقلة، أو ضمنوه كتب التاريخ، كما ترجموا لكثير من القضاة، مثل كتاب (قضاة قرطبة) للخشنى، وكتاب (القضاة والولاة فى مصر)، وكتاب (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادى، وكتاب (المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)

للنباهى. والقضاء فى الأندلس يكتسى أهمية خاصة، من حيث كونه من المناصب الكبرى ذات الاستقلال فى إدارتها، مثله مثل المناصب المستقلة التالية:

أ ـ إمارة البحر فى المرية.

ب ـ إمارة الثغور ومقرها فى سرقسطة.

بيد أن هذا الاستقلال لم تتمتع به الحجابة ولا الوزارة، لكونهما مَنْصبين تَابعيْن للخليفة مباشرة.

وتختلف وظيفة القضاء فى الأندلس عنها فى الدولة العباسية فى المشرق، ففى العصر العباسى كان قاضى القضاة ببغداد يرأس القضاة فى شتى أنحاء الدولة، أما فى الأندلس فكان قاضى الجماعة فى قرطبة ليس له هذه السلطة على قضاة البلاد الأندلسية، وإنما يرأس قضاة قرطبة فقط، وهكذا كان كل قاض مستقلا بقضاء الإقليم المعين به.

أنواع القضاء فى الأندلس

أ ـ قاضى الجماعة

يؤم الناس فى صلاة الجمعة والعيدين فى جامع قرطبة، بمحضر الأمير أو الخليفة، كما كان يختص بالنظر فى أمور المواريث والوصايا، ومشاكل التحجير، والنظر فى شئون الأوقاف.

كما كان يتبع القضاء وظيفة (العدول)، وهم الذين يقومون بالشهادة بإذن القاضى بين الناس، فيما يتعلق بأمورهم الاجتماعية كالزواج والطلاق، وكذا أمورهم المدنية الأخرى فى المعاملات بيعًا أو شراءً أو رهنًا وما إلى ذلك، تحملا للشهادة، واعترافًا بها عند حدوث المنازعات بين الأطراف المعنية بالأمر، وكتابتها فى السجلات لحفظ حقوق الناس.

ب ـ صاحب الشرطة

وتسند إليه المشاكل السياسية، وما يتعلق بالجرائم ونحوها، إلى جانب المحافظة على الأمن، وإنفاذ الأحكام التى يصدرها القاضى، كما يقوم بتنفيذ الأحكام التى يوقعها على المذنبين، مثل إقامة حد القذف أو شرب الخمر، وغيرها من العقوبات التى تدخل فى اختصاصه، بالإضافة إلى قيامه بالتحقيق فى الجرائم، واتخاذ ما يراه بصدد أصحابها.

وكان اختيار صاحب الشرطة من بين علية القوم ووجهائهم، وبشروط معينة، وكانت هذه الوظيفة ذات نوعين:

فأحدهما كان يسمى "صاحب الشرطة الخاصة"، ويتولى أمور الخاصة فى المجتمع، فهو يحكم بين أصحاب المراتب العالية أيًا كانوا.

أما الآخر فهو "صاحب الشرطة الصغرى"، ويقضى بين العامة من الناس، ويتحدث المؤرخون فى صدد صاحب الشرطة الخاصة بأن منصبه بالأندلس كان من الأهمية والخطورة بمكان، فقد يصل صاحبه إلى منصب الحجابة أو الوزارة إذا ما قام بأمور وظيفته على الوجه الأكمل، وكان محل رضا الأمير أو الخليفة.

جـ ـ المحتسب

وتسمى وظيفته "الاحتساب"، والحسبة نظام إسلامى يناط برجل يتبع القاضى أحيانًا أو صاحب الشرطة غالبا، وقد عرفها ابن خلدون بقوله: "أما الحسبة فهى وظيفة دينية، من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الذى هو فرض على القائمين بأمر المسلمين".

ويعرفها ابن تيمية بأنها: "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مما ليس من اختصاص الولاة والقضاة والديوان ونحوهم".

وعليه فالمحتسب فى رأيه يأمر بالجمعة والجماعات، ويصدق الحديث، وأداء الأمانات، وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة، وما يدخل فى ذلك، والغش يدخل فى البيوع بكتمان العيوب، وتدليس السلع، كما يدخل فى الصناعات.

وتعزى الحسبة فى أول الأمر إلى الرسول ﷺ حيث مارس شيئًا من مضمونها، فقد نهى عن الغش فى قوله: "من غشنا فليس منا"، كما ورد فى صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام "مر على صُبْرَة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللاً، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ فقال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: أفلا جعلته فوق الطعام كى يراه الناس؟ من غش فليس منا".

وكان المحتسب على مر التاريخ الإسلامى يتخذ الأعوان والمساعدين، نظرًا لتشعب اختصاصاته، ولم يكن له مقر يجلس فيه، وإنما كان عمله بين الأسواق والشوارع وفى الأماكن العامة، ولذا قيل عنه: إنه صاحب السوق، يتخذ معه نماذج من المقاييس والمكاييل والموازين، لمضاهاة ما لدى الباعة عليها، كما يمر على المطاعم والمخابز للتفتيش عليها، ومراقبة عمالها أثناء أداء عملهم، للتأكد من نظافتهم، ومن جودة صناعتهم، كما كان له التنبيه على أصحاب المبانى المتهالكة، بأن يهدموها محافظة على الأرواح والأموال، كما كان من اختصاصه التفتيش على المدارس والمكاتب، لتوجيه المعلمين نحو تلاميذهم، وليمنعهم من المغالاة فى تأديبهم.

أما الأحكام التى كان يفرضها فكان ينفذها فورا، وبهذا كانت وظيفته تماثل وظيفة "القاضى الإدارى"، الذى يوقع الحكم سريعًا. وكما كان القاضى وصاحب الشرطة يختاران من خاصة القوم وبمواصفات معينة.. فكذلك الأمر فى المحتسب، الذى كان يختار عادة من فضلاء الناس، وممن عرفوا بالكفاءة والنزاهة وبُعد النظر.

د ـ صاحب المظالم

وهو يشبه قاضى الاستئناف فى وقتنا الحاضر، حيث يجوز لمن وقع عليه حكم من طرف القاضى أو المحتسب أن يرفع ظلامته إلى صاحب المظالم، والذى له الحق فى إمضاء الحكم وتأييده، أو نقضه أو استبداله بآخر، أو رفعه تمامًا.

وكان صاحب المظالم يختار من بين خاصة القوم، ومن ذوى المكانة المرموقة فى المجتمع، وغالبًا ما كان يجرى اختياره من الأسرة المالكة ومن أغنيائها.

النظم الحربية
فى العصر الأموى بالأندلس

١ ـ الجيش

لقد كانت التحديات التى واجهتها الدولة الأموية فى الأندلس ثقيلة للغاية، وذلك على المستويين الداخلى والخارجى، ففى الداخل كانت هناك مجابهة ضد القائمين بالفتن والدسائس، ممن سولت لهم أنفسهم إجهاض الدولة فى مهدها، ومن الخارج تلك القوى التى ناوأت الدولة، ووقفت لها بالمرصاد، كالعباسيين فى المشرق، الذين عز عليهم أن ينسلخ القطر الأندلسى عن الخلافة، وكذا دولة شارلمان بأوروبا، التى ما كانت ليستقر لها قرار بجوار دولة فتية آخذة بأسباب القوة والاستعداد، وذلك إضافة إلى نصارى الشمال الذين كانوا يحلمون باسترداد بلادهم من أيدى المسلمين.

وعلى هذا أخذت دولة بنى أمية على عاتقها دعم حاميات الحدود، وتزويد القلاع والحصون بما تحتاجه من عدة وعتاد، إلى جانب حماية الثغور والشواطئ ضد الغارات البحرية المتوقعة بين حين وآخر، فكان أن جهزتها الدولة بكل ما هو ضرورى للدفاع.

ولقد كان تنظيم الجيش بالأندلس أساسًا مستمدًا من التنظيم العسكرى فى المشرق، حيث إن العرب حينما جاءوا على الأندلس نقلوا معهم التقاليد الحربية التى

كانت معمولا بها فى الشرق؛ ففى الشام قسم الأمويون الجيش إلى أجناد، وكل جند فيه جزء خاص من الجيش، وكان العنصر العربى هو السائد بالطبع، فقد كانت الدولة عربية فى كل شىء.

وهذا النظام هو الذى اتُّبِعَ فى الأندلس، فقد قسمت إلى كور ـ وهى أقسام إدارية كبيرة ـ وقسمت القبائل العربية على هذه الكور.

ويعتبر هذا النظام نظامًا إقطاعيًّا؛ لأن الجند الذين كانوا ينزلون كورة كان لهم حق جباية الأموال وأخذ عطائهم منها، ثم يرسل الفائض إلى خزانة الدولة، فهو بذلك إقطاع عسكرى.

وكان على كل قبيلة عدد معين من الجنود، تقدمه عند الحرب نظير هذا الإقطاع، وظلت الحال كذلك حتى جاء الحكم الربضى، وساء ظنه بالعرب بعد موقعة الربض، وكذا بأهل البلاد المولدين، فأخذ يُوجِدُ عنصرًا جديدًا يعتمد عليه، وقد اعتمد على عنصر الصقالبة الذين كانوا يجلبون من شرق أوروبا أصلاً، ثم صار الاسم يطلق على كل أوروبى يُشترى فى إسبانيا، وصاروا جند الأمير الخاص، وكانوا ينزلون بجوار قصره، ويمنعون من الاتصال بأهل البلاد والاختلاط بهم لئلا يتفاهموا معهم، حتى أنهم لم يتعلموا العربية، ثم كثر عددهم زمن الخليفة الناصر حتى بلغوا عدة آلاف(*).

وفى عهد الحاجب المنصور ابن أبى عامر كان للجيش نظام آخر يختلف عما سبق؛ فقد كان الجيش من قبله يتألف من العرب والصقالبة، ووجد المنصور أن العربى فى الجيش آخذ فى الضعف وأنه كان يتميز بأرستقراطيته ليس إلا، فاضطر إلى استقدام أفواج كبيرة من الصقالبة ومن البربر من شمال إفريقية، وعلى هذا فقد صار الجيش مزيجا من هذه العناصر الثلاثة، وإن كانت الغالبية من البربر، ثم اتجه المنصور إلى تقسيم الجيش إلى فرق، وكل فرقة تجمع بين العرب والبربر والصقالبة، بخلاف ما

(*) المجمل فى تاريخ الأندلس: ص١٤٩، ١٥٠.

كان عليه الحال قبل عهده؛ فقد كان كل عنصر يكون فرقة معينة، وبذلك ألغى العنصرية فى الجيش، كما لم يعتمد كليًّا على العنصر العربى، كذلك ألغى النظام الإقطاعى الذى أشرنا إليه، واستبدله بترتيب عطاء معين لكل جندى يأخذه من بيت المال، وعليه فقد خضع الجيش للمنصور، وتمكن بوساطته من إحراز الانتصارات الساحقة فى المعارك العديدة التى خاضها ضد النصارى.

أسلحة الجيش

لقد كانت أسلحة الجيش تتبع الاختصاصات المنوطة بأقسامه، على النحو التالى:

أ ـ المشاة، وهؤلاء يحملون رماحهم الطويلة وسيوفهم وتروسهم.

ب ـ الفرسان، وهؤلاء يلبسون دروعهم ويحملون سيوفهم، وهم عنصر بارز فى الجيش؛ لأهميتهم البالغة فى خوض المعارك، حيث كانوا القوة الضاربة السريعة الحركة ذات الكر والفر، والاقتحام والتطويق، وكان سلاح الفرسان هذا يتألف من عدة أنواع مثل: فرسان الرياضة، وفرسان العبيد، والفرسان المدرعين وغيرهم.

جـ ـ الرماة، وهؤلاء يحملون قسيهم وسهامهم، وهم أقسام كذلك، تبعا لاختصاصاتهم، بحيث أمكن التمييز بين:

١ ـ رجال الرماة.

٢ ـ رجال الرماة الأحرار.

٣ ـ الرماة النظاميين.

٤ ـ رجالة الأرباض.

وكان التمييز بين الأسلحة باللباس والتسليح.

وإلى جانب هؤلاء وأولئك كان هناك تنظيم المهندسين، ورماة المجانيق الذين يساندون الجيش فى حصاره للعدو.

وكى نحيط بالكيفية التى يتجمع بها الجيش وخروجه للقتال، كان النفير العام يُعْلَن، فتأتى الجنود من الكور المختلفة إلى العاصمة حتى يصير الجمع محشودًا فى أكبر الميادين، ثم تقام صلاة عامة فى مسجد قرطبة، ثم يبدأ الجيش مسيرته، تتقدمه الألوية والأعلام متجهًا إلى ملاقاة العدو فى مكان ما، حيث تدور رحى المعركة، فإذا ما انجلت عن انتصار فإن الجيش يعود ومعه الغنائم والسبايا والأسرى، حيث يستقبله الخليفة خارج العاصمة بالترحاب، وذلك إن لم يكن قد قاد الجيش بنفسه، فيجزل العطايا للفرق وخاصة رجال الفرسان.

تقسيم الجيش وتنظيمه

هذا، وينقسم الجيش إلى فرق، وكل فرقة تضم خمسة آلاف جندى يقودها أمير يحمل راية، وكل فرقة عبارة عن خمس كتائب، وكل كتيبة تتألف من ألف جندى تحت إمرة قائد يحمل علمًا، كما أن الكتيبة تنقسم إلى خمسة أقسام، كل قسم من مائتين، عليهم نقيب يحمل لواءا، وكل قسم ينقسم تقسيمًا خماسيًّا إلى أربعين جنديًّا، عليهم عريف يحمل بندا، وينقسم كل أربعين إلى خمسة أقسام، على كل ثمانية جنود ناظر يحمل عقدة(*).

وقد كانت الثغور تختص بحاميات ترابط بها دائمًا لرصد حركات العدو، أما بقية الحاميات العسكرية فقد كانت فى الثكنات الخاصة بها، متاخمة للمدن الهامة خاصة العاصمة، وكانت الثغور عبارة عن عدة خطوط دفاعية، وهذه الثغور ما هى إلا قلاع حصينة فى المواقع الإستراتيجية ذات الأهمية، كأن تكون فى مفترق للطرق أو فى منعطف أو بأعلى قمة جبلية، وكانت تلك القلاع ومعظم الحصون تعد بالمئات، وجميعها عامرة بالجند والعتاد العسكرى.

وقد كان للجيش نظامه الخاص فى الدفاع والهجوم، تبعًا لظروف المعركة فى حد

(*) المصدر السابق: ١٥١، ١٥٢.

ذاتها، وله أساليبه المتعددة فى نصب الكمائن ومباغتة العدو، وما إلى ذلك، أملاً فى نجاح الخطة،وكسب المعركة فى النهاية.

هكذا كان تنظيم الجيش على عهد الدولة الأموية شغلها الشاغل، بحيث استحوذ ذلك على اهتمامات الأمراء والخلفاء، بسبب التحديات والواقع الذى عاشته الأندلس يومئذ.

٢ـ الأسطول

يرجع اهتمام الأندلسيين بالأسطول وإعداده إلى العوامل التالية:

أ ـ جغرافية إسبانيا عبارة عن شبه جزيرة ذات سواحل طويلة، تمتد على البحر المتوسط من الجنوب ومن الشرق، كما تشرف من ناحية الغرب على المحيط الأطلسى. فلما كان الوضع الجغرافى هكذا فقد بات من الضرورى حماية هذه الشواطئ من الغارات البحرية.

ب ـ لقد حدث على عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أن هاجم النورمان سواحل الأندلس، الأمر الذى اضطره إلى تكوين أسطول لصدهم، فكان هذا نواة الأسطول الأندلسى الذى أخذ يتطور بعد ذلك، ويقطع أشواطا فى سبيل مضاعفته وتقويته.

جـ ـ قيام الدولة الفاطمية فى شمال إفريقية، تلك الدولة التى كانت تتوفر على أسطول ضخم، ولما كان بين هذه الدولة وبين دولة الأمويين عداء مستحكم فقد كان هذا حافزا للأندلسيين ليقووا أسطولهم، ويولوه عناية خاصة، وعلى هذا فلم يكن للعرب أسطول من قبل ومنذ الفتح الإسلامى للأندلس، وإنما عبروا المضيق فى سفن يوليان حاكم سبتة، وظلوا فترة هكذا دون أسطول بعد الفتح، حتى كان زمن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، على نحو ما ذكرنا.

لقد كان الأسطول الأندلسى يومئذ يتألف من سفن تسير بالمجاديف والأشرعة،

تحمل الجنود بأسلحتهم، فإذا ما التقت السفن المتحاربة فإن الجنود كانوا يتقاتلون مع الأعداء بالسهام والنار، فإذا ما التحمت السفن يتصارع الجنود على ظهورها بالسيوف.

أما قواعد الأسطول فى الأندلس فقد كانت فى عدة أماكن، ففى إشبيلية كانت السفن تصلها عبر نهر الوادى الكبير قادمة من المحيط، وكذلك كان بمدينة المرية قاعدة بحرية هامة على البحر المتوسط شرق الأندلس، وذلك بالإضافة إلى قواعد أخرى موزعة على سواحل المحيط والبحر الأبيض المتوسط.

ولا يغيب عن بالنا ذلك الدور الذى نهض به الأسطول الأندلسى فى استيلائه على الجزائر الواقعة تجاه السواحل الشرقية، مثل جزيرة ميورقة ومينورقة ويابسة وسردينية، بالإضافة إلى تأمين الشواطئ الجنوبية والغربية.

شواهد من الحضارة الأندلسية في العصر الأموى

(قرطبة)

تقع مدينة قرطبة فى إسبانيا على سفوح الجبال المتفرعة من سلسلة جبال سييرامورينا، التى تمتد شمال المدينة، وتحاذى قرطبة الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير، وهى مدينة قديمة يعتقد أنها أيبيرية الأصل، فقد دلت الحفريات الأثرية التي تمت فى منطقتها على ذلك الاعتقاد، حينما عثر على تماثيل أيبيرية من البرونز، وإنَّ اسمها القديم قد حرفه العرب إلى "قرطبة".

وقد توالى على المدينة حكم دول مختلفة على مر تاريخها، ففى عام ١٦٩ق.م، اتخذها الرومان عاصمة لإسبانيا السفلى، حيث تناولتها العمارة الرومانية، كما أحيطت بالأسوار المنيعة، وازدحمت بالسكان وخاصة الأسرات النبيلة الرومانية، ثم تمكن قائد الإمبراطور يوليوس قيصر من الاستيلاء على قرطبة عام ٤٥م، حيث قسمت إسبانيا السفلى إلى إقليمين: لوزيتانية، وباطقة، وكانت قرطبة عاصمة لإقليم باطقة، وبعد فترة قصيرة أصبحت هذه العاصمة أحد المراكز القضائية فى إسبانيا الجنوبية، أما الثلاثة الأخر فكانت فى أستجة وإشبيلية وقادس.

وحدث أن غزا الفندال والسواق والآلان شبه جزيرة أيبيريا عام ٤٠٩م، واستولى الفندال على إقليم باطقة وإشبيلية، واتخذوا من هذه العاصمة للإقليم. أما

قرطبة، فقد ظلت تحت سيطرة البيزنطيين، حتى تمكن ملك القوط الغربى ليوفخلدو من امتلاكها عام ٥٦٨م، ومن ذلك الحين تنتقل قرطبة إلى منطقة الظل، وتفقد قوة مركزها بالنسبة إلى طليطلة التى فاقتها منذ أواخر القرن السابع الميلادى.

وأقبل الفتح الإسلامى إلى الأندلس، وتم الاستيلاء على قرطبة دون مقاومة تُذْكَرْ، إذ تذكر الرواية العربية أن طارق بن زياد بعث قائدة مغيث الرومى إلى قرطبة على رأس سبعمائة فارس، فوصلوا المدينة تحت جنح الظلام، حيث كان حراس أسوارها فى غفلة عنها، فتمكن جنود مغيث من تسلق الممر الخاص بالسور، وقفزوا إلى داخل المدينة، وباغتوا حراس بابها الجنوبى، فقضوا على من تعرض منهم لهم، ففتحوا الباب الرئيسى من الأسوار، فتفرقت الجيوش الإسلامية، وصارت قرطبة بعد هذا الفتح عاصمة لإسبانيا الإسلامية، حيث أخذت تستعيد ماضى مجدها شيئا فشيئا، ووطد بها ولاة الأندلس سلطانهم منذ عصر الوالى أيوب بن حبيب اللخمى حتى نهاية الحكم الأموى، وقد تُركَ للنصارى من سكانها حرية البقاء على دينهم أو الإسلام، فمن لم يُسْلمْ فُرِضتْ عليه الجزية، كما جرت به عادة الفاتحين الإسلاميين للأقطار النصرانية.

بيد أن السمح بن مالك الخولانى الذى كان واليا على الأندلس عام ١٠٠هـ (٧١٩م) أخذ على عاتقه أن يرتفع بقرطبة إلى مصاف الحواضر الكبرى، فبدأ بترميم السور المحيط بالمدينة حيث كانت قد تهدمت أجزاء منه، واستعمل الأحجار الضخمة التى تخلفت عن الأجزاء المتهدمة من السور الرومانى ـ بعد ترميمه ـ فى إعادة بناء قنطرة قرطبة، وهى التى كانت تعد من أعظم وأعجب الآثار الأندلسية، وقد كانت قبل ذلك من إنشاء الرومان حتى تهدمت تماما فيما عدا أسفلها.

ولقد كان طول هذه القنطرة العربية الجديدية ثمانمائة ذراع، وعرضها عشرون باعا وارتفاعها ستون ذراعًا، وعدد حنايا (أقواسها) ثمانى عشرة حنية، وعدد أبراجها تسعة عشر برجًا، وذلك حسب الروايات العربية والإسبانية.

وتربط هذه القنطرة بين مدينة قرطبة (الجزء المغمور منها)، وبين ربضها وهو ضاحيتها الواقع جنوبى قرطبة على الضفة اليسرى لنهر الوادى الكبير، وهو الربض الذى يطلق عليه "شقندة"،ولا تزال هذه القنطرة باقية حتى عصرنا الحاضر، بعد اعتبار الإصلاحات والإضافات التى شملتها على مر التاريخ.

وترجع قيمة ثروة قرطبة الاقتصادية إلى شهرتها الزراعية، بخاصة سهلها الجنوبى المعروف "بالكتبانية"، فمن محصولاتها الهامة الزيتون، الذى هو أساس لصناعات غذائية مختلفة، وبها المعادن المتنوعة ولا سيما الفضة والزئبق، وحجر الشادنة، ويستغل فى صناعة التذهيب، بالإضافة إلى الرخام الخمرى والأبيض الشديد البياض.

ولقد أخذت قرطبة وضعها التاريخى كعاصمة كبرى عندما اتخذها الأمير عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) حاضرة له، فقد أضحت مركزًا ثقافيًا سلاميًا له مكانته التاريخية الشهيرة، بما اشتملت عليه من أسباب الحضارة السامية، واحتضان المدينة لأعظم الفلاسفة والأدباء والعلماء يومئذ، بحيث كانت مركزا للعلوم والفنون والآداب. وتطورت بها الحركة المعمارية تطورا لم تعرفه أوروبا وقتئذ، والتى كانت تعانى من ظلمات الجهل الذى ضرب أطنابه فى كافة أرجاء القارة الأوروبية.

ويأتى عصر عبد الرحمن الناصر ثم ابنه الحكم المستنصر.. لتبلغ قرطبة فى عهدهما أوجًا حضاريًا لم تعرفه قبلهما ولا بعدهما، فقد عمَّ الثراء والرخاء أرجاءها، وبهذا تفوقت على سائر المدن الأندلسية الأخرى، وظلت كذلك حتى سقطت الخلافة الأموية، وجاء إليها البربر فاتحين عام ١٠١٠م، فحولوا آثارها إلى أنقاض، وقضوا على عمرانها وما امتازت به، ومع ذلك فقد احتفظت بتفوقها فى الميادين الفنية والأدبية، بعد أن نهضت من كبوتها، واستمرت هكذا حتى استردها الإسبان على يد فرناندو الثالث فى ٢٦ يونية ١١٣٦م.

وقد كان لسقوط قرطبة ـ فى حروب الاسترداد ـ رنة أسى وفيجعة أصابت

المسلمين فى العالم الإسلامى، إذ سرعان ما قام الإسبان بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة كبرى، ونتيجة للسياسة الإسبانية تجاه مسلميها بعدئذ، فقد هاجرت أعداد عظيمة من المسلمين، واستعاض عنهم فرناندو بآخرين من الأقاليم المسيحية، كقاطالونيا وليون وقشتالة، ولكن هذه العناصر الجديدة لم تستطع أن ترفع قرطبة من تلك الكبوة، أو تعيد إليها مظهرها القديم، بالإضافة إلى أن هؤلاء المستوطنين جاءوا ومعهم تقاليد تختلف تمامًا عن تقاليد قرطبة الأموية، إلا أن كل هذا لم يمحُ من المدينة العمارة الإسلامية، بل أضحت هذه العمارة المتميزة مصدرًا يستوحى منه النصارى من بعد فنونهم المعمارية، وخاصة فى كنائسهم ودورهم.

ويذكر المؤرخون أن قرطبة فى القرن العاشر كانت تنقسم إلى جانبين كبيرين: جانب شرقى كان يُعرف بالشرقية، وما زال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم، وجانب غربى، كما كانت تنقسم إلى أحياء تعرف فى الأندلس بـ "الحومات"، وهذه تتسمى بأسماء الأبواب المجاورة لها، أو تتسمى بأسماء أهم الآثار الكائنة بها أو بأسماء تتبع حِرَفَ سكانها، مثل حومة الفرج، وحومة الرقاقين قرب باب العطارين، وحومة النجارين،وحومة عين فرقد شرقى قرطبة، وحومة غدير بنى ثعلبة، وحومة حير الزجالى خارج باب اليهود(*).

ويروى ابن بشكوال فى "الصلة" عن أرباض قرطبة؛ أى ضواحيها بعد توسعتها أنها بلغت واحدا وعشرين ربضًا؛ فالمدينة القبلية بعدوة النهر بها ربض شقندة، وربض منية عجب، وأما الغربية فتسعة، هى: ربض حوانيت الريحان، وربض الرقاقين، وربض مسجد الكهف، وربض بلاط مغيث، وربض مسجد السرور، وربض مسجد الروضة، وربض السجن القديم، وأما الشمالية فثلاثة، هى: ربض باب اليهود، وربض مسجد أم سلمة، وربض الرصافة، وأما الشرقية، فسبعة، هى: ربض شبلار، وربض فرن بربل، وربض البرج، وربض منية عبد الله، وربض منية المغيرة، وربض الزاهرة، وربض المدينة العتيقة.

(*) د. السيد محمد عبد العزيز (دائرة معارف الشعب)، ص٦١.

إن ورود أسماء هذه الأرباض "الضواحى" فى المؤرخات العربية لذو دلالة قاطعة على أن مدينة قرطبة كانت من عظم المساحة لدرجة وسعت سكان هذه الضواحى بمرافقها العامة، وذلك من بداية القرن التاسع فى عهد الحكم بن هشام المشهور بالحكم الربضى، ويذكر ابن بشكوال فى "الصلة" أن تلك الضواحى لم تكن مُسَوَّرة، حتى كان سقوط الخلافة الأموية وما تبع ذلك من اضطرابات وفتن، فرأى القائمون بالأمر أن يتذاكروا الأخطار وذلك بحفر خندق حول هذه الأرض جميعها، كما استدار بها سور هام بلغ محيطه أربعة وعشرين ميلاً، وهو على شكل متوازى الأضلاع، وله سبعة أبواب، أكبرها الباب الجنوبى المؤدى إلى القنطرة، وهو ينتهى بالرصيف الممتد على طول الضفة اليمنى للنهر، وفى السور الشرقى بابان: الباب الجديد، وموقعه قرب النهر، وهو المعروف بباب سرقسطة، حيث يطل على الجسر المؤدى إلى تلك المدينة، والآخر يطلق عليه باب عبد الجبار، نسبة لعبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة الأموى مروان بن الحكم، ويقع هذا الباب شمال السور الشرقى، وقد أفاد المؤرخون أنه كان يُعرف بباب طليطلة وباب رومية. فإذا ما انتقلنا إلى السور الشمالى فسنرى أن به بابًا بباب ليون أو باب طلبيرة، حيث يشرف على الجسر المؤدى إلى مدينة طلبيرة.

ويلاحظ أن الجانب الغربى من السور قد اشتمل على ثلاثة أبواب: أحدها كان يعرف بباب عامر القرشى، صاحب الدور الهام فى أحداث القرن الثامن بالأندلس، مما جعل الخليفة عبد الرحمن الناصر يأمر بفتح هذا الباب لإمكان الوصول إلى مقبرة عامر القرشى، أما الباب الثانى، ويقع وسط هذا السور، فكان يُعرف باب الجوز، والباب الثالث جنوبى السور الغربى ويسمى باب العطارين أو باب إشبيلية، وهو من الأبواب التى ما زالت قائمة حتى اليوم.

هذا، وقد اشتملت قرطبة الإسلامية على طرق كبرى وطرق فرعية، فمن أهم الطرق الكبرى طريق يعرف بـ "المحجة العظمى" ويتخذ مساره من باب القنطرة شمالا، ويشق طريقه بين المسجد الجامع وقصر الخلافة، ويتقاطع مع هذا الطريق

شارعان: أحدهما غربى من باب عامر، والآخر شمالى يمتد من باب ليون، وهو نظام رئيسى قديم فى تخطيط شوارع المدن الرومانية القديمة، حيث يتألف من هذا الالتقاء للطرق القديمة شكل صليب، على غرار ما نلحظه كذلك فى الشوارع الرئيسية لكل من غرناطة ومالقة وغيرهما من المدن الأندلسية.

وطبيعى أن تتفرع هذه الشوارع إلى دروب وحارات وأزقة، منها ما هو نافذ ومنها ما هو غير نافذ، ويحفظ لنا المؤرخون أسماء بعض تلك الدروب، مثل: درب ابن شراحبيل (قاضى قرطبة زمن عبد الرحمن الأوسط)، ودرب الفضل بن كامل، ودرب أبى الأشهب، ودرب بنى فطيس.

ويقوم على حماية هذه الأزقة والحارات والدروب حراس معينون، ويسمى الواحد منهم بـ "الدراب"، فيذكر ابن سعيد المغربى، أن بالأندلس عسسًا يطوفون بالدروب ليلاً، ويعرفون بالدرابين، لأن بلاد الأندلس لها دروب بأغلاق تُغلق بعد العتمة، ولكل زقاق بائت فيه؛ له سراج معلق، وكلب يسهر، وسلاح مُعد، وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهم، وإعيائهم فى أمور التلصص.

تلك هى قرطبة قاعدة الحضارة الإسلامية فى الأندلس، وحاضرة الخلافة الأموية فى ذلك العصر، والتى يطلق عليها اليوم "السلطانة الحزينة".

لقد زارها ابن حزم، وهو أحد أبنائها البررة، وذلك بعد الفتنة التى آذنت بأفول شمس الأندلس (أوائل القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى)، حيث لحق قرطبة الخراب على أيدى أهلها، فوصفها بقوله: "وقفت على أطلال منارها بحومة بلاط مغيث من الأرباض المغربية، ومنازل البربر الكسيحة عند معاودة قرطبة (بعد عودته إليها عقب الفتنة)، فرأيتها قد امحت رسومها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى، فصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافى موحشة بعد الأنس، وآكامها مشوهة بعد الحسن، خرائب مفزعة بعد الأمن..". إلى آخر هذا الوصف المحزن الذى يأخذ بمجاميع القلوب، وتسيل له الدموع مدرارًا.

وإن من أعلام قرطبة ـ غير ابن حزم ـ فى شتى مناحى المعرفة كثيرون، نذكر منهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أبا الوليد بن رشد، أعظم فلاسفة العصور الوسطى على الإطلاق، وأبا بكر بن طفيل، صاحب قصة "حى بن يقظان" الفلسفية البارعة الرائعة، والتى ترجمت إلى معظم لغات العالم.

ومن هؤلاء الأفذاذ أيضا: أبو القاسم الزهراوى الجراح الكبير، وصاحب عمليات استخراج الحصى من المثانة والكلى، ومؤلف كتاب "التصريف لمن عجز عن التأليف"، الذى وصف فيه أدوات الجراحة التى ابتدعها، وقام برسمها بيده، ويروى أن الأطباء مدينون له بأخذهم عنه عملية "الكتاراكتا" للعين.

ولقد قام الوزير المغربى محمد بن عبد الوهاب الغسانى بزيارة قرطبة بعد سقوطها فى أيدى الإسبان بنحو ثلاثة قرون، فلم يجد من معالمها الإسلامية وآثارها النادرة سوى المسجد الجامع الكبير، وكذلك الحال عندما زارها بعد ذلك بقرنٍ الغزال الفاسى سفير سلطان المغرب، وكفى بهذا الأثر الفريد شاهدًا.. على ما بلغه عصر الخلافة الأموية، من حضارة ومدنية، شملت كافة الفنون والعلوم والآداب.

مسجد قرطبة الجامع

تقوم عمارة هذا المسجد على صحن مسقوف، وفناء غير مسقوف، وتبلغ مساحة الصحن ٤٨٦٨ مترًا مربعًا؛ أى أكثر من هكتارين ونحوًا من ثلاثة أفدنة، وعدد أعمدته التى ما زالت حتى اليوم تتجاوز ١٢٠٠ عمود.

ولما كانت العادة قد جرت فى الفتح الإسلامى للمدن الإسلامية بأن تحوَّل الكنيسة العظمى بالمدينة إلى مسجد جامع. فهذا ما حدث فعلا بالنسبة إلى المسجد عندما أقيم على أنقاض الكاتدرائية الكبرى بالمدينة، ولذلك لا نحتاج إلى تفسير ما قام به الإسبان، عندما حولوا بدورهم مسجد قرطبة إلى كنيسة عظمى كرد فعل طبيعى، وكما كان هو شأنهم حيال المساجد الجامعة فى البلاد الأندلسية التى استردوها من أيدى المسلمين.

لقد استغرق بناء مسجد قرطبة قرابة مائتين وعشرين عامًا، بحيث بُدِئ فى إنشائه سنة ٧٨٠م، وتم بناؤه نهائيًا عام ١٠٠٠م، فقضت فى بنائه سبعة أجيال من المهندسين المعماريين، وهو بهذا عبارة عن ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وقد بناه عبد الرحمن الداخل فيما بين سنتى ٧٨٠ و٧٨٦م، وهو الجزء الذى يدخل إليه الناس اليوم من الباب الرئيسى المعروف بباب النخيل، وهو أحد الأبواب الرئيسية الثلاثة، فى واجهة المسجد الغربية على الشارع الرئيسى لقرطبة الإسلامية، (المحجة العظمى)، ويمثل هذا الطرف من المسجد الربع الجنوبى، وهو يبدأ من المدخل، وينتهى عند العمود الثالث عشر فى اتجاه المحراب، ومن ناحية الحائط الغربى، وحتى العمود الحادى عشر من ناحية الشرق.

ثم يلغى الداخل من الباب الرئيسى نفسه فى رواق يتألف من الأقواس المزدوجة بعرض ٧٨٥ مترًا، منها خمسة صفوف من الأعمدة يمينا، وخمسة أخرى يسارا.

وكان جدار الجامع الأول، أو القسم الأول من المسجد الحالى، قائمًا عند القوس الثالث عشر، وهو الذى أسسه عبد الرحمن الداخل، ولا زالت آثار هذا الجدار باقية حتى الآن، حيث يمكن رؤية أجزاء منه تحمل الأقواس بدل الأعمدة.

القسم الثانى: أما الجزء الثانى من المسجد فإنه يلى القسم الأول منه مباشرة وهو عبارة عن الزيادة التى أضافها عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ - ٢٣٨هـ / ٨٢١ - ٨٥٢م)، وهو على نفس منوال القسم الأول من المسجد تماما، حيث تمتد إلى الجنوب سبعة أقواس تحملها ستة أعمدة، تليها البقية الباقية من جدار التوسعة الثالثة والأخيرة التى قام بها كل من عبد الرحمن الثالث ثم ابنه الحكم المستنصر.

وفى رواق هذا القسم الثانى من المسجد يبدو للناظر العجب العجاب؛ فالأعمدة مثل أعمدة القسم الأول من الرخام الأخضر أو الوردى أو الأحمر، بل وفى نفس القياس قطرًا ومحيطًا، تعلوها جميعا التيجان الرائعة، والتى اعتمدت عليها أقواس فوق أقواس، وقد أشرف على هذه الزيادة فى المسجد القاضى محمد بن زياد، ونصر ومسرور موليا عبد الرحمن الربضى.

القسم الثالث: أما الزيادة الأخيرة للجامع فهى التى أضافها الحكم المستنصر فى الفترة ما بين عامى ٩٦١ و٩٦٦م، بإشراف أحد رجال الفكر فى الأندلس وهو القاضى منذر بن سعيد البلوطى، حيث تمكن مهندسو الحكم المستنصر أن يوائموا بين القديم والحديث فى عمارة المسجد، حتى بدا فى النهاية وحدة متناسقة متكاملة.

وتجدر الإشارة إلى أنه قد أقيمت كنيسة صغيرة بالداخل، يتقاطع محورها مع محور المسجد، وأنشئ مصلب هذه الكنيسة على يسار الرواق، الأمر الذى صار كالنشاز فى الموسيقى أو العبث فى لوحة فنية رائعة، بشهادة كثير من المستشرقين الذين شاهدوا تلك الحماقة التاريخية.

وهناك الزيادة التى أضافها المنصور محمد بن أبى عامر آخر الأمر (٣٦٦ـ٣٩٣ هـ / ٩٧٦ ـ ١٠٠٢م)، فقد وسع المسجد من ناحيته الشرقية بما يوازى ثلث مساحته أيام الحكم المستنصر، وهكذا أضاف ٢٤٥ عمودًا وقوسًا، تختلف عن الكيفية التى سبقت للأقواس والأعمدة التى أقامها أسلافه، فهى تبدو من بعيد وكأنها مبنية بالحجر والطوب الأحمر كبقية أقواس المسجد، ولكنها فى الواقع من الحجر فقط والمطلى باللون الأحمر، كما أضاف المنصور الجدار الشرقى وأبوابه إلى المسجد، وهى بدورها تختلف فى دقة وروعة الجدار الغربى.

وجدير بالذكر أن هذا الصحن غير المغطى هو المعروف اليوم بفناء النارنج (البرتقال) وما زال شجر البرتقال حتى الآن، ولكن بعد أن أعيد غرسه مرات بطبيعة الحال، بعد أن أضيف إليه بعض النخيل ونافورات فى منظر سياحى جميل. ولما كان غرس الشجر غير معهود فى المساجد الإسلامية، فلذلك حدث خلاف بين العلماء حول جوازه، ولكن فقهاء الأندلس أباحوه اجتهادًا، وكان الذى أفتى بذلك الفقيه صعصعة بن سلام الشامى المتوفى عام ٧٧٤م.

أما المحراب فإنه آية من آيات الفن فى كل العصور، وهو الفريد فى معماره دقةً وروعةً وبهاءً من بين كافة المساجد فى العالم الإسلامى على الإطلاق.

إنه أشبه بصومة تدخلها من مثل ما يشبه الباب المزخرف، فى هيئة حدوة حصان مرفوعة فوق قواعد من الرخام، مع ملاحظة أن الأحجار التى يتكون منها القوس مزينة بالزخارف، ويحيط القوس بدوره إطار منقوش، ويدور بالإطار جدار منقوش، ويدور بالإطار جدار تعمره الكتابات وتزينه فى أسطر متناسقة، قد اشتملت على آيات قرآنية مناسبة من سور شتى، بعضها من سورة السجدة: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وبعضها من سورة غافر: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وفى أحد جوانب المحراب أيضا نجد ما نصه:

"أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم موليه (أى مولاه) وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن، رحمه الله، بتشييد هذه البنية، فتم بعون الله بنظر محمد بن تلميخ، ومحمد بن نصر، وخالد بن هاشم أصحاب شرطته، ومطرف بن عبد الرحمن الكاتب.

وتحت هذا الكتاب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ثم الآية: ٢٣ من سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

ثم عند قاعدتى القوس من اليمين كتابتان فى ثلاثة سطور:

بعد البسملة الآية: ٤٣ من سورة الأعراف: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾، وبعده: "أمر الإمام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين، أصلحه الله، موليه وحاجبه جعفر بن عبد الرحمن ﷺ بنصب هذين المنكبين، فيما أسسه على تقوى من الله ورضوان، فتم ذلك فى شهر ذى الحجة سنة أربع وخمسين وثلاثمائة".

وكل هذه الكتابات محلاة بالفسيفساء، وهو المعروف بالموزايكو فى أوروبا.

ويشتمل المسجد على ميضأة عظيمة، تتوسط فناء المسجد غير المسقوف، وقد تم توصيل الماء إليها من الجبل عبر قنوات رصاصية، وعرف أن المنصور أشار بوضع

صهريج عظيم تحت الميضأة، يتألف من تسعة أقبية ترتكز على أربعة أعمدة واثنى عشر قوسًا، ولا تزال آثار هذا الصهريج قائمة حتى وقتنا الحاضر.

وأما مئذنة الجامع فإنها قائمة على يمين الداخل من باب فناء النارنج (البرتقال)، وكان ارتفاعها يبلغ ٤٥ مترًا، وعمارتها تشبه البرج بارتفاع ٣٠ مترًا، وتبعًا لتحويل المسجد إلى كاتدرائية فإن النواقيس قد وضعت فى الجزء العلوى الحديث منها.

هذا، ويتحدث "جوستاف لوبون"، عن روعة المسجد الجامع، مسجلاً ذلك الخلل الذى لحق به على يد الإسبان، آخذًا عليهم هذا التعصب الأعمى والمشوب بالجهل إذ يقول:

".. ولا يزال جامع قرطبة من المبانى المهمة، مع ما أحدثه الإسبان فيه من التلف والفساد، ومع تلك الكنيسة الواسعة التى أقاموها فيه لتطهيره، ومما صنعه الإسبان أن كلسوا زخارف جداره وكتاباته، ونزعوا من فسيفساء أرضه، وباعوا تحف سقفه الخشبية المحفورة المزوقة، فيجب على من يرغب فى تمثل ما كان عليه جامع قرطبة أن ينظر إلى محرابه الذى تفلّت وحده من التخريب".

"ويقوم سقف جامع قرطبة على أعمدة، ويتكون من اجتماع هذه الأعمدة صفوف من الصحون المتوازية المؤدية إلى باحته، وتتقاطع الصحون وصحون أخرى كتقاطع الأضلاع الذى ينشأ عنه زوايا قائمة، وتتألف من مجموع تلك الأعمدة غابة من الرخام واليصب والجرانيت، وتعلو تلك الأعمدة أقواس رائعة منضدة، مصنوعة على شكل نعل الفرس".

"ولا يؤدى ارتفاع سقف جامع قرطبة الذى لا يزيد على عشرة أمتار، إلى ما نراه فى الكاتدرائيات القديمة التى أقيمت على الطراز القوطى فى القرون الوسطى من الجلال الأدجن، ككاتدرائية ستراسبورغ، وإنما ينشأ عن تنضد أقواسه وتنوع زخارفه منظر مبتكر بديع، قلما تجد مثله فى مبان أخرى".

"وأما محراب جامع قرطبة فإننا ـ من غير أن نجارى "جيرول دى برانجه" فى

قوله: "إنك لا ترى أحسن من زخرفه وسنائه فى أى أثر قديم أو حديث" ـ نعترف بأنه من أجمل ما تقع عليه عين بشر".

"وجامع قرطبة أقيم أيام كان الفن العربى فى فجره، ثم تدرج الفن العربى إلى الكمال"(*).

قرطبة كمركز ثقافى

هذا هو مسجد قرطبة، والذى كان ـ بالإضافة إلى كونه مقرًّا للعبادة ـ مجلسًا للقضاء، وجامعةً نشرت معارفها على الأندلس فى كافة أرجائه، ونهل من ينابيعها طلاب المعرفة من أقطار شتى فى أوروبا.

وقد بلغت قرطبة أوج قمتها العلمية فى عهد الحكم المستنصر، الذى كان محبًّا العلم آخذا بأسره، ويروى عن ولعه بجمع الكتب الكثير، فيقول ابن خلدون: "إنه كان محبًا للعلوم مكرمًا لأهلها، جامعًا للكتب فى أنواعها بما لم يجمعه أحد من ملوك قبله". وقد قدر ابن خلدون والمقرى أنه كان بمكتبة الحكم نحو أربعمائة ألف مجلد، كما عمرت خزائن الأندلس فى عهده بالكتب الكثيرة والمؤلفات النادرة، وكان ينفرد الحكم المستنصر عن غيره من الحكام فى هذا الميدان بأنه كان يقرأ ما تصل إليه يده من الكتب، كما يتناول بعضها بالنقد أو التعليق.

يضاف إلى هذه العناية العلمية أن الحكم كان يجتهد فى استقطاب العلماء الأفذاذ إلى قرطبة، ومن هؤلاء ـ على سبيل المثال ـ الشيخ أبو على القالى العالم اللغوى المعروف، الذى أنزله لديه أكرم منزلة، فألّف القالى بقرطبة كتابه المشهور "الأمالي"، وهو يتألف من المحاضرات التى كان يدرسها فى جامع قرطبة المذكور، والذى أضحى جامعة على غرار الأزهر بالقاهرة والقرويين بفاس؛ وذلك لكثرة العلماء الذين كانوا يحاضرون فيه حول شتى ألوان المعرفة والثقافة، من علوم دينية ولغوية

(*) حضارة العرب لجوستاف لوبون، ص٣٥٣، ٣٥٤.

وطبيعية وكيميائية وطب وفلك ورياضيات وجغرافيا ورحلات، وما إلى ذلك من الفنون والآداب.

ويروى المؤرخون ـ الذين عايشوا هذه الفترة بالذات من تاريخ قرطبة ـ أن الخليفة الحكم كثيرًا ما كان يعقد حلقات الدرس فى قصره مع العلماء والأدباء، ويناقشهم فى جوٍّ علميٍّ بحت، وأنه عمل من جانبه على نشر الثقافة الخاصة والعامة، فأسس المدارس والمكاتب فى العاصمة وفى غيرها من الأمصار بالأندلس، وكان التعليم فيها بالمجان، فأقبل عليها العديد من التلاميذ، وخاصة من أبناء الطبقات العادية، كما قام الحكم بإنشاء المكتبة العامة فى قرطبة، بالإضافة إلى فروع لها بنفس المدينة وغيرها من المدن، لتيسير الاطلاع وتثقيف رواد المعرفة.

والسؤال الذى يفرض نفسه بعد هذا.. هو: هل كان لانشغال الحكم بالثقافة والعلوم إلى هذا الحد تأثير على أمور المملكة عامة؟ وإلى أى مدى كان هذا التأثير؟

والجواب.. إن ذلك الاشتغال لم يكن له رد فعل على مستوى السياسة الخارجية، فإن هيبة الدولة كانت قارة فى نفوس نصارى الشمال بالأندلس، وكانت صولتها تحول بين من تزين له نفسه محاولة مناوشتها. ولكن هذا التفرغ العلمى من الحاكم كان له تأثيره على السياسة الداخلية، فقد ترك أمور تصريف شئون الدولة للوزراء والقادة ورجال الدولة، وهكذا كان وزيره "المصحفي" مفوضًا فى كافة الشئون السياسية والإدارية، بحيث لا يرجع للخليفة إلا فى القليل منها، وكان لهذا تأثيره البالغ على دفة السياسة فى المستقبل، إذ بدأت تتولد من جراء هذا التفويض طبقة من كبار موظفى الدولة، وبالتالى أصبح لهم نفوذ وسلطة، خلافًا لما كان عليه الشأن فى عهد الناصر، ووجود طبقة كهذه أدت إلى عواقب وخيمة مستقبلا، فقد استبد الوزراء والحجاب بعدئذ بتصريف أمور الدولة، وها هو حاجب الخليفة هشام بن الحكم (المنصور محمد بن أبى عامر) ٣٦٦ ـ ٣٩٣هـ/ ٩٧٦ ـ ١٠٠٢م، تصير إليه السلطة شيئًا فشيئًا حتى استقل بالملك، وهو من غير بنى أمية، فأقام "الدولة العامرية" داخل الدولة أخيرًا، والتى لم يقضَ لها البقاء طويلا.

وبسقوط الدولة العامرية تنتقل "قرطبة" ـ كمدينة من مدن الإسلام الثقافية ـ إلى منطقة الظل، وتفقد أهميتها العلمية منذ ذلك الحين شيئًا فشيئًا، لا سيما وأن ملوك الطوائف ثم المرابطين والموحدين لم يولوا قرطبة من العناية ما كان لها على يد الأمويين، خاصة فى مجال المعرفة والثقافة، بعد أن تحولوا عنها إلى غيرها من مدن الأندلس، فاتخذوها عواصم بديلاً عنها.

الباب الثالث

عصر ملوك الطوائف

٤٢٢ ــ ٤٨٤ هـ/ ١٠٣١ ــ ١٠٩١ م

عصر ملوك الطوائف

٤٢٢ ـ ٤٨٤هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٩١م

تتميز هذه الفترة بظاهرة التمزق وانقسام الأندلس إلى عدة دويلات، عرفت فى التاريخ بعصر ملوك الطوائف.

ذلك أنه ما إن سقطت الخلافة الأموية، وانتهى حكم العامريين، حتى أخذت الأوضاع فى الأندلس تدخل فى طور من الاضطرابات وتفكك الوحدة السياسية، فقد استقل الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والصقالبة بالمدن الأندلسية، واقتسموا ولاياتها، وتغلَّب بعضهم على بعض، حيث أقام البربر فى الجنوب، وخضع شرق البلاد للصقالبة، أما البقية الباقية من الأندلس فقد أصبحت فى أيدى مجموعات من محدثى النعم، أو بعض الأسر القديمة التى أفلتت من ملاحقة عبد الرحمن الناصر أو المنصور بن أبى عامر، وعلى هذا فقد حكم الأندلس يومئذ ما يقرب من نحو عشرين أسرة مستقلة، فى عشرين مدينة أو مقاطعة، ممن سُمُّوا بملوك الطوائف.

من أشهر هؤلاء بنو ذى النون الذين ملكوا طليطلة، وحكموا مرسية وبلنسية، ومنهم بنو هود فى سرقسطة، وبنو زيرى فى غرناطة، وبنو حمود الأدارسة فى الجزيرة ومالقة، وبنو عباد فى إشبيلية، وبنو جهور بقرطبة، وبنو صمادح بالمرية، وبنو الأفطس ببطليوس غربى الأندلس، وبنو عامر والصقالبة بشرق شبه الجزيرة.

ولقد انتحل هؤلاء المتغلبون الألقاب الخلافية، من موفق، ومعتضد، ومعتمد، ومستكف، ومنصور، وناصر، وما إلى ذلك، وقد صدق القائل فيهم:

مما يزهدني في أرض أندلس ... سماع معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في موضعها ... كالهر يحكى انتفاخًا صولة الأسد

النشاط الحضارى والثقافى

لكن ما نلاحظه فى خضم هذا التمزق للوحدة السياسية هو حركة التقدم العلمى والفكرى، الذى نشر ألويته فى طول البلاد وعرضها، فقد وجدت العناصر الثقافية والفنية التى زخرت بها البلاد، مجالاً أنسب فى ظل هؤلاء الملوك، ونتجت عن ذلك فى كل حاضرة من تلك الدويلات مراكز فنية وثقافية شملها حكم الطوائف بالرعاية، بدافع من التنافس فى هذا الميدان الحضارى، حتى أضحت قصور هؤلاء الملوك عبارة عن ندوات للعلماء والشعراء والكتاب، بل إن كثيرا من كبار العلماء والمفكرين العظام قد استقدمهم هؤلاء الأمراء من المشرق والمغرب، حيث أجزلوا لهم العطاء حتى أضحى جو الأندلس يومئذ جوًّا علميًّا أدبيًّا فكريًّا، مما حدا ببعض المؤرخين أن يخلع صفة الفكر والأدب على أهل الجزيرة عامة، وها هو ياقوت الحموى صاحب "معجم البلدان" يقول: ".. قَلَّ أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا أو لا يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف محراثه وسألته عن الشعر لقرض من ساعته ما اقترحت عليه". كل هذا بالرغم من التفكك السياسى الذى أصاب البلاد، ومنيت به دولة الإسلام فى الأندلس، حيث سرى فى أوصالها الضعف والوهن".

وتروى المؤرخات فى هذا الصدد أن الغالبية من هؤلاء الملوك كانوا شعراء يقرضون الشعر، منهم: المعتمد بن عباد، وأبو الحزم بن جهور، والمقتدر بن هود، والمعتصم بن صمادح، وأن الفن الغنائى والموسيقى قد بلغ أقصى الدرجات من الرقى والتطور.

كما ارتقى فن العمارة والزخرفة، وقطع فى هذا المضمار أشواطًا تفوق الخيال، ولا أدل على ذلك مما تشهد به قصور هؤلاء الملوك، مثل قصر بنى حمود بمالقة، وقصر الجعفرية فى سرقسطة.

وعلى هذا نرى أن هذه الفترة من حكم ملوك الطوائف قد تميزت بجو من التنافس العلمى والأدبى، إلى جانب التقدم الحضارى الملموس، وهذا ما يذكر بالحمد لها، إذا ما تغاضينا ـ افتراضًا ـ عن جو التنافس السياسى الذى أضعف الدولة، وأطمع النصارى فى الانقضاض على المدن الأندلسية.

حروب الاسترداد تشتد نحو الأندلس

مع هذا التقدم العلمى والثقافى الذى أشرنا إليه، كان الخطر الإسبانى يتهدد المدن الأندلسية، إذ رأى النصارى أن الفرصة سانحة لتحقيق مآربهم فى خضم هذه الانقسامات بين ملوك الطوائف، ونزاعاتهم ضد بعضهم البعض، وكان ألفونسو السادس (الأذفونش) قد وحد تحت إمرته إستوريا وليون وقشتالة، وذلك ليستفيد من وراء تلك الاضطرابات القائمة بين حكام الأندلس، أولئك الذين أعمتهم الأطماع الشخصية عن أن ينظروا إلى مستقبل هذا القطر، وإلى سوء العواقب التى تترصدهم وشعوبهم، إذ لم يتركوا فرصة لتوسيع ممالكهم إلا اقتنصوها، لدرجة أن بعضًا منهم قد لجأ إلى ألفونسو نفسه يستعديه على أخيه المسلم، وأن ألفونسو من جانبه قد لوَّح بمساعدتهم، فتقربت إليه بعض هذه الدويلات مقابل الأتاوات التى فرضها عليهم ليحكموا باسمه، فكانت تلك الطوائف تقبل هذا العرض عن طيب خاطر، ومن العجيب أن ألفونسو كان يتقاضى هذه الأتاوات ليقوى بها جيشه، وليضرب بعض الطوائف ببعض، وهكذا.. استولى على القلاع والحصون واحدًا بعد الآخر حتى حانت الفرصة الذهبية الأولى حين استولى على مدينة طليطلة الحصينة، والقلعة الإسلامية العريقة عام ٤٧٨ هـ (١٠٨٥م)، فكانت هذه فاتحة الضربات التى وجهها ألفونسو يومئذ إلى مسلمى الأندلس، بينما ملوك الطوائف فى

لهوهم يعبثون، وفى نعيمهم مستغرقون، وها هو الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبى، المشهور بابن الغسال، يسجل سقوط قرطبة، وما ينذره سقوطها بقوله:

يـا أهـل أنـدلس حـثوا مطـيكم ... فمـا المقـام بهـا إلا مـن الغلـط
الـثوب ينـسل مـن أطـرافه، وأرى ... ثـوب الجزيـرة منـسولا من الوسط
مـن جـاور الـشر لا يـأمن عواقـبه ... كـيف البيات مع الحيات فى سفط

ولقد حاولت الطوائف أن يجمعوا كلمتهم عندما دهمهم الخطر، ولكن عبثًا حاولوا، وعليه فقد كان لا بد لهم من عون خارجى إن هم أرادوا أن يوقفوا ألفونسو عند حده، ذلك الرجل العنيد الذى صمم على أن يستأصل شأفة المسلمين نهائيًّا من الأندلس، ولم يكن الأمل للنجدة فى المنظور الجغرافى المتاح يومئذ إلا من المغرب، حيث كانت دولة المرابطين الفتية معاصرة لهذه الأحداث الأندلسية، بزعامة مؤسسها يوسف بن تاشفين اللمتونى، الذى دنت له الأقطار بالشمال الإفريقى. لكن ملوك الطوائف كانوا بين نارين؛ فقد كرهوا أن يقعوا بن عدوين: النصارى فى الشمال، والمرابطين فى الجنوب، ولكن وطأة ألفونسو اشتدت عليهم، وتوالت غاراته على المدن الأندلسية، وهذه هى المعادلة الصعبة كما يقولون، بيد أنه لم يكن هناك مفر من أن تجتمع الطوائف ـ ولو مؤقتا ـ فى بلاد كبيرهم المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، والذى كان من جانبه يفكر جديًّا فى طلب معونة المرابطين، فحذروه من ذلك، قائلين: "السيفان لا يجتمعان فى قراب واحد"، لكن المعتمد أسكتهم بقولته التاريخية: "لأن أكون راعى جمال فى صحراء إفريقية خير لى من أن أرعى الخنازير فى قشتالة". وكان المعتمد بن عباد الذى ينتمى إلى قبيلة لخم اليمنية يعتبر قطب الرحى فى أحداث هذا العصر، لأن مملكته قد اتسعت فى إشبيلية حتى شملت قرطبة، ولكن كان مرتبطا مع ألفونسو بمعاهدة، إذ كان يقدم له الأتاوات مثل زملائه ملوك الطوائف، إلا أن ألفونسو قد جاوزت أطماعه تلك المعاهدات،

فقد طلب من ابن عباد أن يتنازل له عن بعض الحصون المتاخمة لقرطبة، بل تخطى أسلوب اللياقة، حين أرسل رسولا إلى ابن عباد يطلب منه أن يسمح له بأن تلد زوجته فى مسجد قرطبة الجامع، حيث إن الرهبان والأساقفة قد أشاروا عليه بذلك، وكان حامل هذه الرسالة أشد وقاحة فى خطابه مع الأمير، الأمر الذى جعل ابن عباد يستشيط غضبا، فيضرب الرسول بمطرقة كانت أمامه فأنزلت دماغه فى حلقه، ثم أمر به فصلب منكوسا فى ميدان عام بقرطبة، كما أمر بقتل الوفد الذى معه من الفرسان، وما إن سمع ألفونسو بما حدث حتى أقسم ليغزون إشبيلية نفسها، ويحاصر ابن عباد فى قصره، وجهز لذلك جيشين، زحف أحدهما إلى إشبيلية، وقاد الجيش الثانى بنفسه، حتى لحق بالأول، وحط رحاله أمام قصر ابن عباد على الضفة الأخرى من نهر الوادى الكبير، ثم بعث برسالة إلى ابن عباد يتهكم فيها بقوله: "لقد طال مقامى، وانتشر الذباب فى مجلسى، واشتد على الحر، فأتحفنى من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى، وأطرد الذباب عن وجهي"، فأجابه ابن عباد عن هذه الرسالة بخطه: "قرأت كتابك، وأدركت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك فى مراوح من الجلود اللمطية، ترح عينك لا تروح عليك". ويقصد ابن عباد بالجلود اللمطية تلك الدرق التى يتترس بها جنود المرابطين فى حروبهم.

الباب الرابع

المرابطون في الأندلس

٤٧٩ ـ ٥٥٥ هـ/ ١٠٨٦ ـ ١١٦٠ م

المرابطون فى الأندلس

(٤٧٩ ـ ٥٥٥هـ/ ١٠٨٦ ـ ١١٦٠م)

كان زعيم المرابطين يومئذ يوسف بن تاشفين، وكان رجلا يتسم بالتدين المتين والخلق القويم، حازمًا داهية مجربًا، فقد شملت فتوحاته المغرب الأقصى جميعه، واتخذ عاصمته مدينة مراكش تحت جبال المصامدة أقوى أهل المغرب، ليشتد ساعده ضد أية فتنة تنشب بالبلاد، كما امتدت فتوحاته إلى شمال المغرب، حيث استولى على المدن المطلة على مضيق جبل طارق، مثل سبتة وطنجة، وبذلك أضحت الأندلس على مرمى البصر، إذ يستطيع أن يستجيب لنداء المسلمين هناك بعبوره المضيق، إذا ما دعوه إلى معاونتهم ونجدتهم، وهكذا نرى ابن عباد يغلب المصلحة العامة على المصلحة الشخصية، ويرفض اعتراض مستشاريه على دعوة المرابطين لمساندته، حيث أرسل وافدا إلى ابن تاشفين يستنجده، بل لم يلبث أن نهض بنفسه إلى المغرب لهذا الأمر، فاستقبله ابن تاشفين بالترحاب، وأجابه على طلبه، وذلك بدافع من الحماس الدينى بادئ ذى بدء، وبدافع الأطماع السياسية إذا ما دعا الحال مستقبلا، وحشد الجيوش بعد أن نادى للجهاد فى البلاد، وعبر بنفسه البحر قائدًا صوب الأندلس، ففرح المسلمون الأندلسيون لقدومه، حتى يعيد إلى البلاد سابق عهدها من الأمن والرخاء والقوة التى افتقدتها منذ أن رحل الحاجب المنصور.

معركة الزلاقة

فى تلك الأثناء كان ألفونسو قد ضيَّق الخناق على مسلمى الأندلس، وأمعن فى طلب الأتاوات التى تعوَّدها من ملوك الطوائف، وغالى فى إذلالهم، ولكن ما إن وصل ابن تاشفين إلى الأندلس على رأس جيوشه، حتى أخذت الأمور بالبلاد الأندلسية مسارا آخر، فقد بدأ المسلمون يتنفسون الصعداء، واضطر ملوك الطوائف إلى أن تنتظم قواتهم إلى جانب قوات المرابطين، وما هى إلا أيام معدودات حتى التحمت قوات ابن تاشفين بجيوش ألفونسو عند بقعة تسمى "الزلاقة" قرب مملكة بطليوس، يوم ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م (٤٧٩هـ)، حيث كان ألفونسو قد أعد جيشًا قوامه خمسون ألف مقاتل، وتملكه الغرور لهذا العدد الضخم المزود بالعتاد اللازم، فصاح فى حاشيته قائلا: "بمثل هؤلاء أحارب الشياطين والجن والملائكة". بيد أن الجموع وما قام به ألفونسو من براعة حربية وحيل عسكرية لم تصل به إلى ما كان يحلم به من آمال، فعلى الجانب الآخر خشونة المرابطين، وجهاد ابن تاشفين وحماسه، وهكذا أحاطت الجيوش الإسلامية بجيش ألفونسو، وحاصرته حصارًا مُحكمًا حتى أبادته إبادة كاملة، لدرجة أن ألفونسو نفسه ومعه حوالى ٥٠٠ فارس لم تُكتب لهم النجارة فرارًا إلا بشق الأنفس، وتابع جيش المرابطين فلول القشتاليين، فاتحا للحصون والمعاقل، مستردًا لما سبق أن استولى عليه ألفونسو من أراضى المسلمين، وبهذا خلص الأندلسيون من طغيان ذلك القائد النصرانى العنيد.

ولقد عاد يوسف بن تاشفين بعد هذا الانتصار إلى المغرب، استجابة للوعد

الذى قطعه على نفسه أمام العلماء بألا يضم الأندلس إلى مملكته، وأن مهمته كانت قاصرة على نجدة المسلمين هناك ومساندتهم لا أكثر، وإن كان قد ترك من خلفه بشبه الجزيرة حوالى ثلاثة آلاف مقاتل من رجاله، لتأمين هذا الانتصار، وللوقوف إلى جانب الأندلسيين إذا ما سولت للنصارى أنفسهم أن يعاودوا الكرة.

نتائج معركة الزلاقة

لقد ترتب على هذه المعركة أن فك المسلمون الحصار الذى ضربه النصارى حول مدينة سرقسطة، كما استردوا مدينة بلنسية، بالإضافة إلى توغل المرابطين فى أراضى النصارى.

كما أن الفرحة عمَّتْ الأندلسيين الذين أعجبوا بحماس وبسالة ابن تاشفين ، وميله إلى استشارة الفقهاء فى شتى أمورهم، وهكذا أبطل الضرائب التى كان يتقاضاها ملوك الطوائف من مسلمى الأندلس، إلا ما أقره عمر بن الخطاب فى عهود الإسلام الأولى.

بيد أن طبقة المثقفين الأندلسيين لم تعجبهم شخصية ابن تاشفين، فقد سخروا منه، لغلظ طباعه، إضافة إلى جهله بجو الأدب والشعر الذى كان يعم الأندلس يومئذ، بل كان إحدى مهاراتهم اليومية، ولذلك لم يكن ابن تاشفين فى نظرهم إلا بربريًا ذا ثقافة ضئيلة ومحدودة، لكن الأغلبية من طبقات الأندلسيين الأخرى رضيت عنه وعن سياسته وزعامته، فقد أمّن لهم مصالحهم، وأشاع فى البلاد جوًّا من الاستقرار والرخاء، وتمنّت هذه الغالبية الأندلسية أن يصير زعيم المرابطين ملكًا على البلاد دون تحفظ أو شروط.

المرابطون وضمهم الأندلس لمملكتهم

لقد شاهد ابن تاشفين بنفسه ما ينعم به ملوك الطوائف، وما هم غارقون فيه من الرفاهية، إضافة إلى بذلهم أقصى جهد مستطاع فى تحصيل الضرائب من رعاياهم، فوق ما هو حق لهم، فأمرهم بالتجاوز عن بعضها، فأبى بعضهم بشدة، ووافق البعض الآخر على مضض، إلا المعتمد بن عباد، فقد رحب بهذه الاقتراحات وأولاها عنايته.

كذلك نرى أن هؤلاء الملوك قد تعددت شكواهم لابن تاشفين من بعضهم البعض على ما أصاب الأندلس على أيدى هؤلاء، وتأثر بقول الشاعر:

أرى الملوك أصابتهم بأندلس ... دوائر السوء، لا تبقى ولا تذر

ناموا، وأسرى لهم تحت الدجى ... هوى بأنجمهم خسفا، وما شعروا

وكيف يشعر من فى كفه قدح ... يحدو به ملهياه: الناى والوتر؟!!

لذلك نرى زعيم المرابطين يجمع الفقهاء بالمغرب، ويستشيرهم فى شأن تخليص الأندلس من هذه الطوائف بالقضاء عليهم، وأن يضم هذا القطر إلى مملكته، فأفتوه بأنه فى حل من الوعد الذى سبق أن قطعه على نفسه بألا يضم الأندلس إليه، بل وأوجبوا عليه أن يفعل ذلك إنقاذا لهذا القطر من الانحلال والسقوط فى أيدى النصارى، وحفاظا على مصالح المسلمين هناك، وقد أيدت هذه الآراء تلك الفتاوى التى جاءته من الشرق، من مثل الغزالى والطرطوشى، فوقعت هذه الآراء المؤيدة

موقع الرضا من نفس ابن تاشفين، وكان أن عبر المضيق، ودخل الأندلس، بادئًا بمملكة غرناطة التى استولى عليها عام ٤٨٣هـ (١٠٩٠م)، وغنم الجم الكثير من كنوزها، حيث وزع هذه المغانم على جنوده، فكانت فى نظرهم جواهر لم تقع أعينهم عليها من قبل.

ثم أخذ يستولى على المدن واحدة تلو الأخرى، حتى أتى عليها جميعها، وحتى مملكة ابن عباد فى إشبيلية نفسها، فقد بعث إلى المعتمد يطلب إليه التسليم، فلما لم يستجب هاجمته الجيوش المرابطية وحاصرته، وبعد أن بذل جهدًا حربيًّا فائقًا اضطر إلى التسليم، فقبض عليه ابن تاشفين وأرسله إلى المغرب فى حراسة مشددة، حيث أودع السجن بمدينة أغمات التى مات بها عام ٤٨٧هـ ، ولم تأت سنة ٤٩٠هـ ، (١١٠٢م) حتى أصبحت الأندلس كلها تابعة لمملكة المرابطين.

نتائج ضم الأندلس للمملكة المرابطية

يتساءل الباحثون حول الآثار التى ترتبت على ضم الأندلس لمملكة المرابطين وربطها بإفريقية.

والجواب عن هذا يتفرع إلى وجهتين: فمن وجهة نظر مفكرى وأدباء الأندلس نراهم فى معظمهم لا يرضون عن حكم المرابطين، فقد رأوا فيهم خشونة وجفوة، بل وجهلاً بما عليه الأندلسيون من أساليب الحضارة، وما أبدع فيه أدباؤهم فى ميدان الفكر، الأمر الذى يناقض ما عليه هؤلاء الفقهاء، الذين هم الصفوة من مستشارى المرابطين، أولئك الذين حاربوا كل ما يتصل بحرية الفكر، وجمدوا عند علوم التفسير والفقه، ورموا الفلسفة وأصحابها من مثل الغزالى وغيره بالإلحاد، بل وصل الأمر بهؤلاء الفقهاء أن استصدروا قرارًا من ابن تاشفين بإحراق مثل هذه الكتب الفلسفية ومتابعة حائزيها، أو معتنقيها بمحاكمتهم، ومصادرة ممتلكاتهم بعد التنكيل بهم.

يضاف إلى جبهة المعارضة هذه أولئك الذين فروا من وجه المرابطين من الأسر القديمة بالأندلس، فقد غاظهم استيلاء المرابطين على هذا القطر، ورأوا فيهم دخلاء فى هذه البلاد، وربطوا بينهم - فى حظهم من الوعى - وبين البربر الذين خربوا قرطبة على أيام الخلفاء.

أما وجهة نظر السواد الأعظم من الأندلسيين؛ فقد رضيت عن ضم قطرهم إلى مملكة ابن تاشفين بإفريقية، ورحبت بهذه الخطوة، إذ انتشر الأمن، وساد القانون ربوع البلاد، وعمت السكينة، وأمن الناس على مصالحهم، وراجت تجارتهم، فقد أوقف المرابطون الزحف النصرانى نحو الأندلس، وانكمش هؤلاء فى حصونهم من جراء الرعب الذى استولى عليهم من حلول المرابطين، ناهيك باستقرار الأمور فى عموم الأندلس، بانحسار المنافسات التى كانت بين ملوك الطوائف، تلك التى كانت تتمثل فى حروبهم ضد بعضهم البعض، مما كان له تأثيره البالغ على اقتصاديات وأمن البلاد شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا.

نهاية المرابطين فى الأندلس

لما توفى يوسف بن تاشفين تولى الأمر من بعده ابنه على بن يوسف (٥٠٠ - ٥٣٣ هـ / ١١٠٦ - ١١٣٨م)، الذى ترسم خطى والده فى الجهاد، ومدافعة النصارى وحماية البلاد، فقد كان من أهم صفاته الورع والزهد، والغيرة الشديدة على الإسلام، وجمع حوله نخبة ممتازة من العلماء ورجال الدين، أولئك الذين سيطروا على شئون الدولة، إلا أن خليفة المرابطين هذا بميله الشديد إلى علوم الدين نراه من الجانب الآخر يهمل أمور مملكته، ويتراخى فى إدارتها، الأمر الذى كان لا بد معه من اختلال أحوالها، وفقدانها عوامل الاستقرار والأمان.

وفى جانب القطر الأندلسى من مملكة أولئك المرابطين كان من الممكن أن تظل سيوفهم وسواعدهم قوية، لو أنهم حافظوا على مبادئهم من الزهد والتقشف،

والبعد عن ملذات الحياة، لكنهم استغرقوا فى الترف واستناموا إلى اللذة واللهو، ونسوا طبائع الجندية التى فطروا عليها، وخاصة جنودهم الذين انحدروا مع اللذات والشهوات، فى وقت وجيز لم يتجاوز العشرين عاما، حتى صار جيشهم لا يعول عليه فى صد غارات النصارى، بعد أن أدمن هذا الجيش تعاطى الخمور، فضيعوا شبابهم، وانحطت هممهم، وبلغ بهم الحال أن أصبحوا خطرًا على أمن الدولة نفسها، إذ قطعوا الطرق على المسافرين، وانتهزوا كل فرصة للسلب والنهب!!

أما من جهة حكامهم وولاتهم، فقد كانوا القدوة السيئة فى هذا المجال، من الانغماس فى الترف والنعيم، بل وزاد الطين بلة أن وقعوا تحت سيطرة العواهر من النساء، وأصحاب الأطماع الشخصية من الأعيان والفقهاء. والعجيب فى الأمر أن مثل هذه الأوضاع التى أصابت المرابطين فى الأندلس، والتى كان لها تأثيرها السيِّئ على الرعية، قد حدث مثلها لهم فى إفريقية، الأمر الذى كان يؤذن بأفول نجم هذه الدولة هنا وهناك، مع ما كان من استئناف النصارى لهجماتهم على المدن الأندلسية، وامتدت تلك الهجمات فى نواحى شتى، حتى وصلت إلى جبل طارق فى الجنوب، وحينئذ كان لا مناص من أن يشق الأندلسيون عصا الطاعة على المرابطين، وأن يثوروا عليهم، ويطردوا عمالهم، وأن يجلوهم عن بلادهم.

وهكذا عادت الأندلس إلى مثل حالتها من التمزق الذى عانته أيام الطوائف، ومن التنافس بين أفراد ظهروا على مسرح السياسة الأندلسية، مثل أبى محمد سدراى، ويوسف البطروحى الثائر بمدينة لبلة، ولبيد بن عبد الله صاحب شنترين، وعلى بن عيسى بن ميمون صاحب قادس، والقاضى ابن حميدين بقرطبة، ومحمد بن على بن الحجام صاحب بطليوس، والقاضى ابن الحكم بن حسون بمالقة، وابن مردنيش بشرق الأندلس وغيرهم..

وهؤلاء بعضهم من البربر، والبعض الآخر من الأندلسيين، ولكن هؤلاء

وأمثالهم قد تشتتوا وأصبحوا أثرا بعـد عين، حينما بايع أهل الأندلس عبـد المؤمن ابن على، خليفة المهدى بن تومرت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب، التى أطاحت بدولة المرابطين، فضم هؤلاء الأندلس إلى مملكتهم الجديدة، وجاز عبد المؤمن الموحدى إلى الأندلس عام ٥٥٥هـ (١١٦٠م)، وضمت جيوشه الجزيرة الخضراء ورندة وإشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة إلى سلطانه، ولم تمضِ سنوات حتى صار الأندلس كله إلى حوزته، وضمن مملكته، متخذا من إشبيلية عاصمة للموحدين.

الباب الخامس

الموحدون في الأندلس

٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ/ ١١٦٠ ـ ١٢٣٣ م

الموحدون فى الأندلس

عبد المؤمن الموحدى

لقد نشطت غارات الإسبان ضد المدن الأندلسية فى خضم هذه الأجواء التى سادت القطر بذهاب دولة المرابطين، الأمر الذى لا مناص معه من أن يستنجد الأندلسيون بالموحدين فى المغرب، كما سبق لهم من قبل الاستنجاد بالمرابطين، فوافق الموحدون على إغاثة مسلمى الأندلس، وأنه لا مانع لديهم فى الوقت نفسه من أن يرثوا ملك سلفهم المرابطين هناك.

وهكذا دخل عبد المؤمن الموحدى إلى الأندلس، التى صارت فى قبضة الموحدين، الذين أبقوا على عاصمتهم الكبرى فى "مراكش"، ولكن بعثوا بنواب لهم يحكمون الأندلس باسمهم، مما أدى بمرور الزمن إلى بروز الأطماع لهؤلاء النواب، الذين كانوا يتحينون الفرصة للوثوب إلى الحكم.

معركة الأرك

يتحدث التاريخ عن أعظم شخصية من الموحدين، وهو الخليفة الثالث المنصور بالله أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن (٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ / ١١٨٤ ـ ١١٩٨م)، الذى قاد جيشًا بنفسه عام ٥٩١هـ ضد النصارى، الذين اشتد خطرهم فى الشمال، لينقذ ما تبقى فى أيدى المسلمين فى الأندلس، وهكذا اصطدم بالنصارى فى موقعة تسمى "موقعة الأرك"، قرب مقاطعة بطليوس الواقعة حاليا بين إسبانيا والبرتغال

فى الجنوب الغربى، وقد انتصر الموحدون ومعهم الأندلسيون فى هذه المعركة انتصارًا عظيمًا على جيوش ألفونسو الثامن ملك قشتالة، وألفونسو الثانى ملك أراجون عام ٥٩١هـ (١١٩٥م).

وفى عهد أبى يوسف هذا بلغت العاصمة إشبيلية ذروة مجدها وحضارتها، فقد كان هذا الخليفة شغوفًا بالبناء والتشييد، حيث أكمل بناء جامع إشبيلية، وأتم بناء مئذنته المعروفة بالخيرالدا، وذلك عقب انتصاره فى معركة الأرك.

معركة العقاب

لقد عقد ملوك إسبانيا المسيحية العزم على أن يثأروا لهزيمتهم فى معركة الأرك، منتهزين فرصة الضعف الذى بدأ يدب فى جسم الدولة الموحدية، حيث بدأوا يتصلون بالقوى الصليبية فى أوروبا، ليستمدوا منهم العون البشرى والمادى، فأقبل عليهم المتطوعون من كافة الأجناس، من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا، وفى بداية عهد محمد الناصر بن أبى يوسف يعقوب (٥٩٥ ـ ٦١٠هـ/ ١١٩٨ ـ ١٢١٣م). التقت الجيوش الموحدية بالجيوش الصليبية فى معركة تسمى "معركة العقاب" بين فريقين غير متكافئين عدة وعددًا وعتادًا، فقد كان النصارى يتجاوزون المليون مقاتل، بينما كان جيش الناصر لا يتجاوز نصف هذا العدد، ولذلك دارت الدائرة على الموحدين فى هذه الموقعة من عام ٦٠٩هـ (١٢١٢م)، وفنى معظم جيشهم.

لقد كان من نتائج هذه المعركة ـ علاوة على فناء معظم جيش الموحدين ـ أن فقدت هذه الدولة نفوذها فى الأندلس، حيث ابتهج النصارى بانتصارهم الساحق هذا، وعولوا على أن يسقطوا المدن الأندلسية واحدة تلو الأخرى. يضاف إلى ذلك أن موجات من الشغب والفوضى أخذت تسود البلاد، حيث برز إلى السطح أولئك الذين كانوا يتربصون بالدولة الموحدية الدوائر، والمتطلعين إلى اعتلاء عرش السلطة من أمراء الأندلس، وهكذا ذهبت ريح الموحدين عن هذه البلاد عام ٦٢٣هـ (١٢٣٥م)، حيث أعلن القائد ابن هود نفسه حاكمًا لمعظم بلاد الجنوب، متخذًا من

مدينة مرسية قاعدة لملكه، ولما توفى ابن هود آل حكم الأندلس إلى أسرة بنى الأحمر (بنو نصر) أصحاب غرناطة عام ٦٣٠هـ (١٢٣٨م).

على أى حال، لم تخل الساحة الأندلسية على أواخر عهد الموحدين من بعض خلفائهم البارزين، أمثال أبى العلاء إدريس (٦١٥ ـ ٦٢٨هـ/ ١٢١٨ ـ ١٢٣٠م)، الذى بذل محاولات نحو إشبيلية ليعيد إليها سابق مجدها أيام أبيه المنصور، فأقام حولها التحصينات لحمايتها من غارات النصارى، كما أنشأ بها البرج الضخم المعروف ببرج الذهب لهذا الغرض عام ٦١٨هـ (١٢٢٠م)، ولتحصين المدينة من هذه الناحية، وهو من أهم آثار الموحدين الحربية فى إشبيلية، كما قام أبو العلاء بترميم أسوار هذه العاصمة، وشيد أمامها الحزام الخارجى، بالإضافة إلى خندق أمامه.

لكن ما إن توفى أبو العلاء إدريس حتى ضعف الأمل فى إنقاذ عاصمة الموحدين من بعد من الخطر الإسبانى، فقد ظفرت جيوش فرناندو الثالث (القديس) بالاستيلاء على قرطبة حاضرة الأمويين التليدة فى ٢٣ شوال ٦٣٦هـ (٢٩ يوليو ١٢٣٦م).

وكان لسقوطها رنة أسى مفجعة فى نفوس المسلمين، وهكذا بدأت رقعة الإسلام تنكمش شيئا فشيئا أمام حروب الاسترداد النصراينة، حيث سقطت بعدئذ كل من بلنسية ومرسية عام ٦٣٧هـ (١٢٣٩م)، مما شجع الإسبان على تشديد القبضة على عاصمة الموحدين "إشبيلية"، التى حوصرت ما يقرب من سبعة عشر شهرًا بالجيوش القشتالية، حتى سقطت فى أيدى الأعداء، وبسقوطها تنقضى دولة الموحدين فى الأندلس نهائيًّا.

الباب السادس

عصر بني الأحمر

مملكة غرناطة

٦٣٠ ـ ٨٩٧ هـ/ ١٢٣٣ ـ ١٤٩٢ م

مملكة غرناطة

٦٣٠-٨٩٧هـ / ١٢٣٣-١٤٩٢م

كانت مملكة غرناطة هى البقية الباقية من ملك العرب فى إسبانيا، بعد أن استولى النصارى على معظم مدن الأندلس، وتمزقت دولهم فلم يبقَ للمسلمين إلا هذه الرقعة فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة، تلك المملكة التى أمكنها أن تحافظ على حدودها قرابة قرنين ونصف من الزمان، بفضل عدة عوامل خارجية وداخلية.

تقع مقاطعة غرناطة بين جبال سييرا نيفادا (جبل الثلج) وساحل البحر المتوسط، اعتبارا من المرية وحتى جبل طارق. ولقد لجأ إلى هذه المملكة كافة الجنود الذين فروا من المدن الأندلسية التى سقطت فى أيدى الإسبان، حيث وهبوا أنفسهم وسيوفهم لغرناطة، فكانوا حقا حماة هذه المملكة الأخيرة، رغم مواردها المحدودة بالقياس إلى موارد دول النصارى.

مؤسس المملكة

هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بابن الأحمر، ويُرجع التاريخ نسب هذه الأسرة إلى قبيلة الخزرج من أنصار المدينة، وكان هذا الرجل مثالا للزعامة والقيادة، والكفاية الإدارية والحربية، إذ أخذ على عاتقه أن يقصر جهوده على المحافظة على مقاطعة غرناطة وأحوازها لا أكثر، فلم يمتد به الطموح إلى استرداد بعض المدن التى سقطت بأيدى النصارى، وذلك لأن موارد الدولة

وإمكانياتها لا تسمح بمثل ذلك، فضلا عن أن توزيع الجهود هنا وهناك سوف تكون نتيجته الحتمية فقدان ما تحت يده.

لقد كان المؤسس قائدًا ومالكًا لحصن أرجونة قرب غرناطة فى أعقاب حكم الموحدين، ثم تمكن من ضم بعض المدن الأخرى مثل مدينة بسطة ووادى آش وشريش ومالقة وجيان، وما إن استولى على غرناطة نفسها حتى اتخذها عاصمة لمملكته عام ٦٣٦هـ (١٢٣٨م).

وعليه فقد أصبح هذا القائد معقد آمال المسلمين الأندلسيين، حيث أقام هذه الدولة الفتية فى جو يسوده الاضطراب، الذى كان يجتاح المدن الإسلامية من لدن القوى النصرانية، فكان مما يستلفت النظر ـ والحال هكذا ـ أن هذه المملكة تمكنت من المحافظة على التراث الدينى واللغوى والفكرى طيلة مائتين وخمسين عامًا، رغم إحاطة الإسبان بها برًّا وبحرًا، أملا فى أن يتوج النصارى "حروب الاسترداد" بإسقاط هذه القلعة الإسلامية الأخيرة فى أيديهم، ورغم الحروب الداخلية والصراع على الحكم بين بنى الأحمر.

أسباب صمود مملكة غرناطة

لعل من الواضح أن السر فى صمود هذه الدولة أمام أعدائها النصارى طيلة قرنين ونصف من الزمان يرجع إلى ما يلى:

أولاً: موجة الهجرات التى توالت على غرناطة، من الخبرات البشرية فى العلوم والفنون والآداب، إضافة إلى أصحاب الحرف والصناعات، فقد كان لهذه النوعيات المختلفة فضل كبير فى دفع عجلة الحضارة الأندلسية قُدمًا إلى الأمام، وبخطوات ثابتة ومتلاحقة ومتطورة، مما ساعد على أن تبقى المملكة طيلة هذه الحقبة فى رخاء وسعادة.

ثانيا: إن همة ونشاط ملوك بنى نصر لم تقف عند حد فى مجالات الإعمار، فقد

بذل هؤلاء الملوك أقصى جهد مستطاع لتنمية موارد الدولة زراعيًّا وصناعيًّا وتجاريًّا، إضافة إلى تشجيعهم العلماء والمفكرين وأصحاب الخبرات على اختلاف تخصصاتهم، علاوة على جهودهم العسكرية للمحافظة على حدود الدولة ضد غارات الإسبان، كما لوحظ أن ملوك هذه الدولة – بداية من زعيمها ومرورا بخلفائه – قد أشاعوا الأمن والسكينة فى ربوع البلاد، بفضل السياسة الرشيدة التى انتهجوها فى هذا السبيل، عدالة اجتماعية، ومساواة بين جميع الطوائف فى الحقوق والواجبات.

ثالثا: بيد أن عاملاً هامًا للغاية كان له دوره فى صمود الدولة على كافة الجبهات، ألا وهو جو العلاقات التى كانت سائدة بين بنى نصر وبين ملوك بنى مرين فى المغرب، تلك العلاقات التى اتسمت بالود والصداقة، فكان من نتائج هذا الارتباط الوثيق بين المملكتين أن توالت الإمدادات الحربية من المغرب إلى الأندلس، ما بين عتاد وسلاح وجيوش، بل إن بنى مرين كانوا حريصين على أن يتركوا بالأندلس على مر الأيام حامية ذات أهمية من جيوشهم، كى تساعد الأندلسيين إذا ما دهمهم خطر النصارى فى أى وقت، مثل الحاميات التى تمركزت فى كل من جبل طارق وبعض المدن المتاخمة لحدود النصارى فى الشمال.

رابعا: كان من حسن حظ مملكة غرناطة أن ملوك النصارى كانوا مشغولين فى بداية الأمر بإرساء قواعد ملكهم، وفرض سيادتهم على المدن الإسلامية التى استولوا عليها، كما كانوا فى شغل شاغل بالخلافات التى كانت تنشب بينهم أحيانًا، الأمر الذى أعطى مملكة غرناطة فرصا سانحة لإصلاح شئونها، وتدعيم إمكانياتها الدفاعية.

خامسا: المحالفات السياسية التى كان يعقدها ملوك غرناطة أحيانا مع ملوك النصارى، تلك التى كانت إحدى العوامل الهامة والقوية فى إطالة أمد ذلك الصراع بين النصرانية والإسلام.

مظاهر الحضارة فى مملكة غرناطة

لقد أخذ ملوك بنى نصر على عاتقهم أن يجعلوا من هذه المملكة نموذجًا للفن والحضارة، وميدانًا للعلوم والآداب، على غرار ما كانت عليه الحال فى قرطبة أيام الأمويين، خاصة فى عهد الحكم المستنصر ومن قبله عبد الرحمن الناصر، فقد أفسح بنو نصر المجال أمام المهندسين والفنيين وأصحاب الحرف والصناعات المختلفة، نحو حركة عمرانية فى أنحاء شتى من المملكة.

وهكذا أنشأوا على مستوى الدولة "قصر الحمراء" الرائع، والذى يعد بحق تحفة فنية فريدة فى تاريخ القصور الملكية إبان العصور الوسطى الإسلامية، كما بلغت العمارة أوجها فى أرجاء الأندلس، خاصة على عهد كل من السلطان يوسف الأول أبى الحجاج سابع ملوك بنى نصر، وابنه السلطان الغنى بالله محمد الخامس، حيث عمر بلاط كل من هذين الملكين بخيرة من رجال العلم والفكر والأدب، كما امتاز عهدهما بخيرة من رجال الإدارة والسياسة، بفضل أولئك الوزراء الذين تولوا مباشرة شئون الدولة، أمثال الرئيس أبى الحسن على بن الجياب، ولسان الدين بن الخطيب، وقاضى الجماعة أبى الحسن على النباهى، فقد قام الوزير ابن الخطيب – على سبيل المثال – بسفارات خاصة إلى الملوك المعاصرين فى كل من المغرب وإفريقية وإسبانيا، وقد نجحت سفاراته هذه نجاحًا منقطع النظير، بحيث حققت أهدافها المنشودة، لاسيما تلك السفارات التى تمت بين غرناطة وفاس، تدعيمًا لروابط الأخوة والصداقة، وتأكيدًا للعلاقات السياسة والحربية التى كانت وثيقة بين الدولتين.

بداية النهاية

لكن نرى للأسف أن من توالوا على حكم الدولة بعد يوسف الأول ثم ابنه محمد الخامس من ملوك بنى نصر لم يكونوا فى مستوى واقعهم السياسى والإدارى، إذ لم تكن لهم قوة أسلافهم، كما أنهم لم يلقوا بالا للخطر المحدق بهم من طرف

النصارى، فقد عاشوا فى جو من النزف والملذات، ونشبت بينهم الخلافات الأسرية على السلطة، الأمر الذى أذن بنهاية دولتهم، بل بنهاية الإسلام والمسلمين فى هذا القطر.

كذلك كان من سوء الطالع لنهاية هذه الأسرة ونهاية الحكم الإسلامى فى الاندلس أن مملكتى النصارى يومئذ (قشتالة وأراجون) قد اتحدتا فى مملكة واحدة هى مملكة قشتالة، فقد تزوج فرناندو ملك أراجون بإيزابيلا ملكة قشتالة، ثم عملا سويا على انتهاز فرصة الفُرقة التى دبت بين صفوف أسرة بنى نصر، ذلك الخلاف الذى كان له الدور الأساسى فى ضياع الأندلس نهائيا.

لقد دام عهد السلطان الغنى بالله محمد الخامس حتى عام ١٣٩١م، وإن كان قد تخلل عهده انقلاب تزعمه أخوه إسماعيل، ولكنه تمكن من العودة للعرش فى النهاية، ثم تولى بعده عدة سلاطين ضعاف. توالت الأحداث بعدئذ وقبيل سقوط غرناطة. ونشبت الفتن والدسائس بين أفراد الأسرة النصرية، واندلعت الثورات تأييدًا لأحدهم على الآخر، وكانت آخر حلقة فى سلسلة هذه الفتن، ذلك الصراع الرهيب بين أبى عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل، وبين أخيه السلطان أبى عبد الله بن محمد بن أبى الحسن، ذلك الصراع الذى كان من نتيجته الحتمية سقوط العاصمة غرناطة فى أيدى الملكين الكاثوليكيين بالتسليم يوم ٢ يناير ١٤٩٢م.

الحرب الأخيرة ضد غرناطة

كان يحكم غرناطة فى العهد الأخير مولاى على أبو الحسن، وكان قائدا شجاعا مقداما، إلا أن خبرته الحربية كانت قاصرة على مواجهة حروب الاسترداد النصرانية، فقد حدث أن بادر النصارى بالحرب قبل أن يبادئوه، وذلك بأن امتنع عن دفع الأتاوة التى كان يؤديها لملك النصارى يومئذ، حيث جاءه رسول فرناندو مُلحًا فى طلب هذه الأتاوة، فقال له أبو الحسن: "قل لمولاك إن سلاطين غرناطة الذين اعتادوا دفع الأتاوة قد ماتوا، وإن دار الضرب بغرناطة لا تطبع الآن غير

السيوف..". ثم بدأ أبو الحسن بغاراته الشعواء على النصارى مؤيدا قوله بالعمل، حيث انتصر فى أولى غاراته ضد قلعة الحمراء، وحقق فيها نجاحا كبيرا، وأتبعه بانتقام فظيع تمثل فى سوق الأسرى من الشيوخ والنساء والأطفال إلى العاصمة غرناطة، فى جو من البرد القارس وليس عليهم من اللباس ما يكفيهم أخطار ذلك الصقيع، حتى أن مسلمى العاصمة قد استنكروا مثل هذا الأسلوب ضد من لا حول لهم ولا قوة من أمثال أولئك الأسرى، وتوقع سكان غرناطة لذلك انتقامًا نصرانيًّا إن عاجلاً أو آجلاً.

ولقد كان من المنتظر أن يحرز "الزغل" انتصارات لاحقة عندما كان يحاول أن يرد النصارى عن أية مدينة إسلامية يهاجمونها، لو أن ابن أخيه أبا عبد الله وقف إلى جانبه وسانده، ولكن المأساة كانت تتجلى فى مقاومة ابن الأخ هذا الدفاع وصده، وذلك بدافع الانتقام الشخصى وعدم النظر إلى المصلحة العامة، بل وصل الأمر بأبى عبد الله هذا أنه كان يبعث برسله مهنئًا ملكىّ النصارى، كلما استوليا على مدينة من المدن المتاخمة للعاصمة غرناطة !!!

وما كاد الأمر يتم لفرناندو وإيزابيلا بالاستيلاء على القسم الغربى من مملكة غرناطة ومدنها، حتى وليا وجهيهما شطر القسم الشرقى، وذلك أملا فى أن تضيق الدائرة على العاصمة نفسها، بالرغم من الجهود العسكرية المضنية التى بذلها "الزغل" فى سبيل صد النصارى، بيد أن هذه الجرأة والبسالة منه لم تغنِ شيئا أمام الجيوش الصليبية الجرارة، والموارد الضخمة التى توفر عليها جنود العدو عدة وعتادًا، فهكذا نرى أن حكم المسلمين للأندلس قد قارب النهاية، حيث سقطت المدن الإسلامية الحصينة من حول العاصمة، مثل رندة (أبريل ١٤٨٥م)، ومالقة، فاضطر الزغل – وقد تملكه اليأس – أن يسلم بقية الحصون المتاخمة لغرناطة بنفسه إلى فرناندو، وحينئذ منحه الملك قطعة من الأرض ليستقر بها بقية حياته، إلا أن مقامه – بعد أن فقد عزه وسلطانه – فى بقعة محدودة ومحصورة لم يطب له بطبيعة

الحال، فقد شعر بأنه غريب وتحت الرقابة النصرانية، فباع تلك الأرض، وعبر البحر إلى المغرب، وهناك قبض عليه سلطان فاس الوطاسي وسجنه، ثم عذبه عذابا أليما، وسمل عينيه، وقضى بقية حياته فى شقاء مقيم وتعاسة متوالية.

أما ابن الأخ عبد الله فقد خيل إليه أنه انفرد بالأمر، وخلص حكم غرناطة له دون منازع، بعد أن رحل عمه عن الأندلس نهائيًا، وبعد أن شفى غليله منه، لكن "فرناندو" سرعان ما كتب إلى أبى عبد الله يطلب إليه تسليم العاصمة نفسها، وإلا أعلنها عليه وعلى العاصمة حربا شعواء لا رحمة فيها، مثلما كان منه ضد عمه بمدينتى رندة ومالقة، فما كان من أبى عبد الله إلا أن رجا فرناندو أن يبقى عليه ملكًا تابعا له، أو أن يرجئ مسألة التسليم هذه بعض الوقت، بيد أن ملك النصارى لم يوافق على ذلك، وصمم على طلبه، معززًا إرادته بأن أرسل لأبى عبد الله شروط التسليم للمدينة غرناطة، وتوعده بأنه إن تقاعس فى إجابة الطلب فسوف يرى بعينى رأسه ما سوف يحل به وبأهله، بل وبالمدينة نفسها من الويل والهلاك.

شروط التسليم

اضطر أبو عبد الله تحت هذا الضغط، حيث أضحى دون حول أو قوة يرد بها غائلة هذا العدو الغاشم، إلى الرضوخ لمشيئة فرناندو، والنزول عند شروطه التى أملاها دون منازع.

ولقد أورد "المقرى" صاحب كتاب "نفح الطيب"، بنود معاهدة التسليم فى هذا الكتاب، والتى تضمنت سبعة وستين شرطا، وقد أجملها بقوله:

"وفى ثانى ربيع الأول من السنة – أعنى سنة سبع وتسعين وثمانمائة – استولى النصارى على "الحمراء"، ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنا خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين، منها: تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم

وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وألا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يغصبوا أحدا، وألا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودى، ممن كان يتولى عليهم من قِبَل سلطانهم من قبل، وأن يُفك جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا، خصوصًا أعيانًا نص عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة، ولا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة (المغرب) فلا يمنع، ويجوزون - فى مدة عُينتْ - فى مراكب السلطان لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عُشْر مالهم، وألا يؤخذ أحد بذنب غيره، وألا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله، ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاقب على من قتل نصرانيا أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون عن المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصرانى للسور ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسير المسلم ببلاد النصارى آمنًا فى نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب روما (البابا)، ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره..).

هذا، ولقد وافق أبو عبد الله - كما ذكرنا - ومعه أعيان غرناطة على هذه الشروط مضطرين، ونزل عن آخر معقل من معاقله فى العاصمة، وسار فى مجموعة من فرسانه نحو فرناندو وإيزابيلا، حيث قدَّم إليهما مفاتيح المدينة ومفتاح قصر الحمراء، ثم لوى عنان فرسه ومن ورائه الأهل والحاشية، مودعًا غرناطة الحزينة بالعبرات، فنظرت إليه أمه وقد رأته يبكى، وقالت له قولتها التاريخية: "ابك مثل النساء مُلكًا مُضَاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال ثم اتجه نحو المغرب لاجئا إلى بنى

وطاس الملوك المعاصرين، حيث أقام بفاس بقية حياته، وهو وأهله فى ذلة ومسكنة من وراء الصدقات، وذلك حتى وفاته سنة ٩٢٤هـ، فى عهد ملك المغرب يومئذ أبى عبد الله محمد الشيخ بن زكريا الوطاسى.

موقف النصارى من شروط التسليم

لقد كان توقيع معاهدة التسليم بين حاكم غرناطة وبين ملكى قشتالة فى ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ (٢٥ نوفمبر ١٤٩١م)، وبعد توقيعها بفترة قصيرة دخل الملكان الكاثوليكيان قصر الحمراء بغرناطة فى اليوم الثانى لربيع الأول سنة ٨٩٧هـ (٢ يناير ١٤٩٢م)، وكان من المنتظر أن يحترم هذان الملكان تلك المعاهدة وأن ينفذا ما جاء بها نحو المسلمين، ولكن لم يلبث النصارى أن نقضوا تلك الشروط واحدًا تلو الآخر، وكانت مأساة ذات أحداث اصطبغت بالدماء، وتجلَّتْ فيها التضحيات بألوانها، فقد دافع المسلمون الأندلسيون عن عقيدتهم الإسلامية أمام التعصب الأعمى، الذى لم يرحم صغيرًا ولا كبيرًا، بل تنكر النصارى تماما لمن أحسنوا من قبل معاملتهم، وأقاموا لهم حضارة، وأناروا لهم مشاعل الفكر والثقافة، وعمروا لهم الأرض بخيراتها، تحدوهم العقيدة الإسلامية السمحة، والتى ما تعلموا منها، بل ورفضوا خيرها، كما حدث من شارل مارتل فى أعقاب معركة بلاط الشهداء (١١٤هـ).

لقد انتهى الأمر بالمسلمين بحصارهم وتسليط الأضواء عليهم، فكان التنصير فى النهاية بالقوة نصيبهم، وإلا فالهجرة إلى خارج الأندلس نهائيًّا، وذلك بمقتضى مرسوم ملكى تحت ضغط رجال الكنيسة، ثم أعقب هذا غلق المساجد، والتضييق على المسلمين حتى لا يتمكنوا من ممارسة أية شعيرة من شعائرهم الدينية، وزاد الطين بلة عندما قام النصارى بحرق كثير من المخطوطات الإسلامية والكتب العلمية النفيسة، وهى الذخيرة الفكرية للمسلمين على مدى سنين طويلة، بل وصل الحال فى هذا الجو من التعصب أن المسلمين، الذين كانوا يصرون على التمسك

بدينهم وعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية، كانوا يقعون تحت طائلة العقاب من طرف رجال الكنيسة وعيونهم، وكان الإحراق بالنار بعد التعذيب لكثيرين وسط ميادين العاصمة غرناطة، انتقامًا وردعًا للآخرين.

الحركات الانتقامية للعرب

لقد عمّتْ العرب الأندلسيين انتفاضة شديدة إزاء هذه الأعمال الوحشية التى مارسها النصارى ضد المسلمين، وتمثلت تلك الانتفاضة فى ثورات عارمة استمرت قرابة مائة عام على الساحة الأندلسية، فقد لطخ المسلمون الكنائس بالأقذار، كما ذبحوا بعض الرهبان والقسس، وعذبوا من وقع تحت أيديهم من المسيحيين، وكذلك فعل النصارى فى المقابل بمن ظفروا به من المسلمين، وقد حدث أن قام أولئك الإسبان بذبح مائة وعشرة من العرب دفعة واحدة فى سجنهم، وظل الحال هكذا سِجَالاً بين الطرفين غير المتكافئين طيلة قرن من الزمان، وأخيرا حكم الإسبان على العرب بالنفى خارج شبه الجزيرة الأيبيرية، فمنهم من لجأ إلى المغرب الأقصى، ومنهم من لجأ إلى المغرب الأوسط، إلى جانب طوائف نزحت إلى الإسكندرية أو تركيا، بحيث لم يأت عام ١٠١٧هـ (١٦٠٩م) إلا وقد بلغ عدد من تناولهم النفى فى فترة وجيزة أكثر من ثلاثة ملايين مسلم، هم مجموعة مختارة بل ونادرة من الخبرات البشرية فى شتى الميادين حضاريا، من العلوم والفنون والآداب ومن أرباب الحرف والصناعات والفلاحة.

آثار نزوح المسلمين عن إسبانيا

لم يدرك الإسبان عندما أجلوا المسلمين عن الأندلس أنهم إنما كانوا بفعلهم هذا يخربون بيوتهم بأيديهم، فقد ظلت إسبانيا إبان حكم العرب مدى ثمانية قرون مركزا للحضارة والمدنية، ومصدرا للعلوم والفنون بألوانها، فى ظروف كانت فيها بقية الأقطار الأوروبية تعيش فى ظلام دامس من الجهل، بل إن إسبانيا لم تصل بعد ذلك حضاريا إلى ما كانت عليه أيام العرب، وهكذا لم يفطن الإسبان إلى نتائج تلك

الحماقات التى قاموا بها نحو المسلمين، وها هو أحد كتاب إسبانيا "بلاسكو أبانيز" الذى توفى عام ١٩٢٨م يلوم قومه، إذ رآهم يمجدون تاريخ إسبانيا عقب طرد العرب، فيقول: "لا تغرنكم اللمعة فى تلك العصور، فليس كل ما يلمع ذهبًا، إنه لم يأت تاريخ إسبانيا من الشمال ولا من الكنيسة كما تظنون، بل جاء من الجنوب ومن العرب، فمع العرب أتت إلى إسبانيا الحرية لشعبها المقيد تحت ملوك الدين ومطارنة الحروب، وما استولى عليه العرب فى سنتين استغرق ثمانمائة سنة لإخراجهم منه، وذلك لأنهم لم يلقوا مقاومة شديدة عند فتحهم لبلادنا، فإن الشعب الإسبانى كان يشعر أن هذا الفتح ليس استعمار سلاح، بل استعمار تمدن جديد، وحرية دينية جديدة، لم ترها إسبانيا من قبل ولا من بعد، فالعرب جعلوا إسبانيا فى ذلك العهد كالولايات المتحدة الأمريكية، يعيش فيها المسلم والمسيحى واليهودى بحرية تامة، ومن غير تعصب، وبينما كانت دول شمال أوروبا تتطاحن فى حروب دينية وأبناؤها يعيشون كالبرابرة .. كان العرب والإسبان واليهود يعيشون فى سلام معًا، كتلة واحدة وأمة واحدة، فزاد سكان البلاد حتى بلغوا ثلاثين مليونا فى مدة قصيرة، وارتقى فيها الفن، وازدهرت العلوم، وتأسست الجامعات، وسكن ملوكها القصور، وعاش شعبها فى الرخاء، بينما كانت ملوك بلدان الشمال تبيت فى قلاع صخرية سوداء قذرة، وشعوبها تعيش فى أحقر المنازل، يلبسون ويأكلون كالبرابرة المتوحشين".

"وماذا عمل ملوك إسبانيا الذين أتوا من الشمال بعد ذلك؟ طردوا الحضارة من إسبانيا، طردوا العرب واليهود، وأحلّوا محلهم الدين والتعصب، أليست الملكة إيزابيلا هى التى وضعت نظام التفتيش؟ ألم تطفئ إسبانيا فى ذلك العصر سراج العلم الذى كانت تضيئه الجوامع الإسلامية، وأحلت محله قناديل العبادة وسرجها؟ فصارت إسبانيا تهتم بمواعيد الصلاة أكثر من اهتمامها بالقراءة والتنقيب، وعندها بدأت إسبانيا تموت".

وها هو باحث ومفكر ومؤرخ وهو "ستانلى لين بول" STANLY LENE

POOL يقول فى هذا الصدد: "إنا لنلمس فضل العرب، وعظم آثار مجدهم، حينما نرى بإسبانيا الأراضى المهجورة القاحلة، والتى كانت أيام المسلمين جنات تجرى من تحتها الأنهار، تزدهر بما فيها من الكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية، وحينما نذكر تلك البلاد التى كانت فى عصور العرب تموج بالعلم والعلماء، وحينما تشعر بالركود العام بعد الرفعة والازدهار".

شواهد من الحضارة الأندلسية
فى عصر بنى نصر (بنى الأحمر)
بغرناطة

يرتبط اسم غرناطة بعصر بنى نصر أو بنى الأحمر فى الأندلس (أبريل ١٢٣٨ – ٢ يناير ١٤٩٢م)، فقد كانت هذه المدينة عاصمة لملكهم الذى دام قرنين ونصفا من الزمان، ولم تكن المدينة زمن الفتح الإسلامى ٩١هـ (٧١٢م) سوى قرية صغيرة دخلها المسلمون عنوة، ولم يولوها يومئذ أهمية، فقد استقر جند دمشق بمدينة البيرة الواقعة شمال غرب غرناطة إحدى مدن عاصمة الإقليم (البيرة)، ولكنها بدأت تشع شيئا فشيئا منذ القرن العاشر الميلادى، ولما استولى البربر على البيرة وأحرقوها وخربوها نزح أهلها إلى غرناطة، ومنذ ذلك الحين بدأ اسم المدينة يسيطر على إقليم الكورة، حتى أضحت العاصمة للإقليم.

تقع غرناطة على الضفة اليمنى لنهر شنيل، ويخترقها نهر حدره، الذى أتاح للجنان والبساتين أن تحيط بالمدينة، ويطل عليها من الشرق والغرب جبل "شلير"، الذى تكسوه الثلوج صيفًا وشتاءً، فعرف فى الإسبانية بجبل "سيرانيفاذا"؛ أى الجبل المكسو بالثلج.

وينبع نهر حدره الذى يشق غرناطة، من أعلاها، حيث تعلو الهضبة التى تضم قلعة السلاطين وحى البيازين.

وتروى المؤرخات أن زاوى بن زيرى البربرى، اتخذ هذه المدينة عاصمة له عام ١٠١٣م، حينما سقطت فى أيدى البربر، ثم امتدت إليها يد حبوس الصنهاجى من البرابرة بالتعمير، فقد جعل منها مدينة محصنة بالأسوار، كما أقام قصبتها المنيعة، ولما خلفه ابنه باديس أكمل ما بدأه أبوه من عمارتها، وهكذا ازدهرت المدينة واتسعت واستمرت عاصمة لبربر صنهاجة أيام ملوك الطوائف، حتى عام ١٠٨٩م، حيث جاء المرابطون بعدئذ فاستولوا عليها، وكان الصنهاجيون قد توجوا منشآتهم فيها ببناء القصر الملكى المعروف بقصر الحمراء، بأعلاه الهضبة التى تشرف على حى البيازين. ولم يتبق من غرناطة على عصر بنى زيرى سوى بقايا لعقد كانت تقوم عليه قنطرة نهر حدره، وهى المعروفة اليوم "بقنطرة القاضى".

وجاء المرابطون إلى الأندلس، فاتخذوا غرناطة عاصمة لهم على ما يبدو، ثم توالى عليها الموحدون عام ١١٤٦م، وفى أواخر أيامهم تمكن ابن هود صاحب مرسية من ضم غرناطة إلى ملكة عام ١٢٣١م، وظلت المدينة كذلك قرابة ست سنوات. فما إن توفى ابن هود عام ١٢٣٧م، حتى قامت دولة بنى الأحمر بزعامة محمد بن يوسف بن نصر بن أحمد، سيد حصن أرجونة وبسطة ووادى آش وشريس وجيان ومالقة فاتخذ ابن الأحمر غرناطة عاصمة لمملكته التى دامت قرنين ونصف من الزمان، بالرغم من حروب الاسترداد الإسبانية التى كانت قائمة على قدم وساق بين طرفين غير متكافئين عدة وعددًا، بالرغم من الحروب الداخلية التى عانت منها المملكة طوال فترة بقائها، ولعل مرد هذا العمر الذى عاشته غرناطة يعود إلى مساندة بنى مرين بالمغرب، الذين كانوا يهبون – كلما استدعى الأمر – إلى نجدة مسلمى الأندلس، بالإضافة إلى تلك المعاهدات السياسية التى كان يعقدها ملوك بنى نصر مع نصارى الشمال للمهادنة أحيانًا، كما لا ننسى الحكمة والسياسة اللتين كانتا يتحلى بهما ملوك بنى نصر.

هذا، ويلاحظ أن موجات الهجرة الداخلية من البلاد الأندلسية المتاخمة قد بدأت تتزايد على مملكة غرناطة، وذلك كلما سقطت فى أيدى الإسبان مدينة من المدن

المسلمة سواء منها الشرقية أو الوسطى، وبخاصة أولئك المسلمين الذين فضلوا الهجرة إلى المناطق الإسلامية على الخضوع للنصارى، وقبول التدجن، فقد سقطت قرطبة عام ١٢٣٦م، ومرسية عام ١٢٣٦م، وإشبيلية عام ١٢٤٨م، الأمر الذى حدا بالمسلمين واضطرهم إلى تأليف جبهة قومية لمقاومة النصارى، فكانت غرناطة ملاذهم، والقلعة الحصينة الأخيرة للدفاع عن الوجود الإسلامى فى الأندلس.

لقد كان من بين هؤلاء اللاجئين المسلمين إلى غرناطة أعداد ضخمة من أرباب الصناعات المختلفة والفنانين المهرة، وقد عمل كل منهم فى دائرة اختصاصه بالعاصمة خاصة، حتى نهض بفضلهم فن العمارة والزخرفة، وجادت الطبيعة بوفرة من المحاصيل الزراعية، بالإضافة إلى ما كانت تجود به المناطق الجبلية من معادن نفيسة كالحديد والرصاص والنحاس، وهكذا ازدهرت وسائل العيش والمقام بتلك البقعة، ونمت الصناعات المختلفة بفضل هذه الخامات التى توفرت لتلك الأيدى النشطة.

إن الزائر اليوم لمدينة غرناطة ليأخذه العجب، وتستولى عليه الدهشة، إذ يرى ما قام به سكانها يومئذ فى مجال المعمار الهندسى خاصة، ولا سيما أجنحة قصر الحمراء التى أضافها ملوك بنى نصر على مر عهودهم، كباب الشريعة، وبرج قمارش، وبهو السفراء، والحمامات السلطانية، وغيرها، مما لا يزال – حتى يومنا هذا – شاهد صدق على الروح السامية، المنطلقة فى آفاق الجمال ...، لما حوته تلك الآثار من زخارف، واشتملت عليه من نقوش، فى سحر أخاذ وجمال فتان.

الحركة العلمية فى غرناطة

لم يألُ سلاطين بنى نصر جهدًا فى سبيل نشر العلم والثقافة فى ربوع مملكة غرناطة، ولا سيما فى العاصمة نفسها، فقد شجعوا العلماء والأدباء والكُتاب، وعمر بلاطهم بمشاهير من أمثال هؤلاء، كما عملوا على تشييد المدارس والمكتبات فى المساجد ودور العلم، وكانوا يتفانون فى سبيل توفير المناخ العلمى بالعاصمة إحياء لذكر قرطبة الأموية، وأملا فى أن تختلف غرناطة عن قرطبة فى هذا الميدان، وهكذا أنشأ السلطان أبو الحجاج يوسف الأول (٧٣٣ – ٧٥٥هـ / ١٣٣٣ – ١٣٥٤م) أشهر ملوكهم ـ بعد المؤسس لدولتهم ـ المدرسة اليوسفية، وتسمى مدرسة غرناطة والمدرسة النصرية، وقام على تنفيذ مشروعها ـ بأمر من السلطان ـ حاجبه أبو النعيم رضوان، عام ٧٥٠هـ (١٣٤٩م)، وكانت تقع فى درب ضيق يحاذى شارع الملكين الكاثوليكيين تجاه المدفن الملكى، بيد أن مبناها القديم قد أزيل فى أوائل القرن الثامن عشر وأنشأت بلدية غرناطة مكانه مبنى حديثًا، ولم يتبق من المبنى الأصلى سوى الجناح الذى يشتمل على محراب مسجد المدرسة، ويضم مجموعة من النقوش والزخارف، تزينها الآيات القرآنية التى انتشرت فى المحراب، وتوجد بمتحف غرناطة "الأركيولوجي" بعض اللوحات الرخامية الخاصة بهذه المدرسة، منها قطع متفرقة تشكل فى جملتها لوحة إنشاء هذه المدرسة، نصها: "أمر ببناء هذه الدار للعلم، جعلها الله استقامة ونورا، وأدامها فى علوم الدين على مر الأيام، أمير المسلمين، أظله الله بعونه، العلى، الشهير، السعيد، الطاهر، الرفيع، الهمام، السلطان

المؤيد أبو الحجاج يوسف، ابن العلى، الكريم، الكبير، الخطير، الشهير، المجاهد، الفاضل، العادل، المقدس، الأرضى، أمير المسلمين، وناصر الدين، أبى الوليد إسماعيل، بن فرج، بن نصر، كافئ الله فى الإسلام صنايعه الزاكية، وتقبل أعماله الجهادية، وتم ذلك فى شهر المحرم عام خمسين وسبعمائة"(*).

وتعد هذه اللوحة واحدة من عدة لوحات خاصة بتلك المدرسة، كانت قد نزعت منها عند هدمها، ونقلت إلى مختلف المتاحف الإسبانية.

وقد نظم لسان الدين ابن الخطيب – وزير هذا السلطان – قصيدة تشيد بالمدرسة ومنشئها، وكانت منقوشة على إحدى حوائط هذه المدرسة، وتتألف من تسعة أبيات مطلعها:

ألا هكـذا تُبنـى المـدارس للعلـم ... وتبقـى عهـود المجـد ثابتـة الرسـم

ونهايتها:

جزى الله عنى يوسف خير ما جزى ... ملوك بنى نصر عن الدين والعلم(*)

ويُذكر أن ابن الخطيب أوقف على "المدرسة اليوسفية" نسخة خاصة من كتابه المشهور "الإحاطة فى أخبار غرناطة"، اعترافًا منه بيد السلطان أبى الحجاج عليه، ولانتفاع الدارسين والباحثين فى المدرسة بمؤلفه التاريخى الكبير هذا، وقد ذكر فى حجة الوقف أن تلك النسخة تتألف من اثنى عشر سفرا، وسطرت الحجة بأول سفر منها، كما أوقف الحاجب أبو النعيم رضوان – بأمر من السلطان – الأوقاف الجليلة على المدرسة، حتى جاءت نسيجة وحدها، بهجة وصدًا وظرفًا وفخامةً"(*).

هذا وقد تولى التدريس بهذه المؤسسة العلمية نخبة ممتازة من العلماء الذين

(*) يوسف الأول ابن الأحمر – سلطان غرناطة – للمؤلف، ص ٩٨، ٩٩.
(*) المقرى "نفح الطيب" جـ٩، ص ١٨٦ (تحقيق محيى الدين عبد الحميد – القاهرة).
(*) الإحاطة، جـ١، ص ٥١٦، ٥١٧ (تحقيق عنان – القاهرة).

فاخرت بهم العاصمة غرناطة، منهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ الشيخ أبو سعيد فرج بن لب (٧٠١ – ٧٧٠هـ)، والشيخ أبو جعفر أحمد بن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى (٧٢٤ – ٧٧٠هـ)، وهما من أشهر أساتذة هذه المدرسة، وتربطهما بلسان الدين ابن الخطيب معاصرهما (٧١٣ – ٧٧٦هـ) صلات أدبية وعلمية، بالإضافة إلى مشاركته هو نفسه فى التدريس بالمدرسة أحيانًا.

هذا، ومن جانب آخر فقد نهضت الآداب فى غرناطة فى عصور بنى نصر الأولى (القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادي)، وقد حفل بلاط معظم سلاطين بنى الأحمر بشيوخ الكتاب المبرزين فى الآداب، أمثال الرئيس أبى الحسن على بن الجياب، والشريف أبى القاسم الحسن السبتى، والوزير أبى بكر بن الحكيم، والكاتب المحدث أبى الحسن التلمسانى، وغير هؤلاء كثيرون ممن اتصل عصرهم بعصر السلطان يوسف الأول أبى الحجاج، حيث بلغت الحركة الثقافية ذروة ازدهارها يومئذ فى المملكة عمومًا وفى العاصمة بصفة خاصة، فقد اشتهر هذا السلطان نفسه بالعلم والأدب، كما شغف بالفنون ولا سيما فن العمارة، فكان طبيعيا أن يشجع المشتغلين فى هذه المجالات، حتى غدا بلاطه مضرب المثل فى هذا الصدد.

ولقد ازدهرت حركة التأليف والتصنيف فى الآداب والتراجم يومئذ ازدهارًا عظيمًا، وبرزت جبهة عريضة من الأدباء المعروفين وقتئذ، ونذكر فى مقدمتهم ذا الوزارتين الأديب المؤرخ لسان الدين ابن الخطيب الغرناطى السلمانى، صاحب المؤلفات فى شتى نواحى المعرفة، بحيث عُد إنتاجه موسوعة علمية حقًّا، فقد كتب فى التاريخ والأدب والفلسفة والتصوف والطب والموسيقى والفلك والسياسة، وغير ذلك، وقد بلغ ما كتبه فى هذا حوالى خمسة وستين كتابًا، فُقِدَ معظمها للأسف إبان محنة نزوحه من الأندلس إلى المغرب لاجئًا سياسيا فى أخريات أيامه(*).

فمن مؤلفات ابن الخطيب – التى ينبغى الإشارة إليها فى هذا المقام – ما يشهد

(*) انظر التعريف بابن الخطيب فى كتابه "الإشارة إلى أدب الوزارة" بتحقيق المؤلف، ص ١٥-٣٣.

بازدهار الحركة العلمية والأدبية بغرناطة فى ذلك العصر: "الكتيبة الكامنة – ريحانة الكُتّاب – الإحاطة فى أخبار غرناطة".

ففيها يتحدث بصفة خاصة عن العديد من معاصريه وغيرهم من العلماء والأدباء والكتاب، ولا سيما فى مؤلفه الأخير (الإحاطة)، وهو عشرة أسفار، والذى خصص أجزاء منه للتراجم وتاريخ حياة تلك الصفوة الجمة من العلماء، ومؤرخا فى الوقت نفسه للحركة الثقافية فى غرناطة.

وهناك العلوم المختلفة التى نبغت فيها طائفة من علماء غرناطة، كتفسير القرآن وشرح الحديث، واستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، وهو المعروف بعلم الفقه، وقد اشتغل بهذا العلم فى هذا العصر كثير من العلماء، من أمثال أبى القاسم عبد الله بن جزى الكلبى الغرناطى، المولود فى ربيع الثانى من عام ٦٩٣هـ (١٢٩٢م)، ومن مؤلفاته فى هذا المضمار كتاب "التسهيل لعلوم التنزيل"، وكتاب "الأنوار السنية فى الألفاظ السنية"(*).

ومن الأعلام المشتغلين بالتصوف يومئذ طائفة من أقطاب هذا العلم، نذكر منهم أبا إسحاق إبراهيم بن يحيى الأنصارى، المولود عام ٦٨٧هـ (١٢٨٦م)، والمتوفى فى غرناطة عام ٧٥١هـ (١٣٥٠م)، ومن مؤلفاته "زهرة الأكمام" فى قصة سيدنا يوسف، وأبو عبد الله محمد بن محمد الأنصارى، المولود عام ٦٤٩هـ (١٢٤٨م)، والمتوفى عام ٧٥٤هـ (١٣٥٣م)، ومن كتبه "بغية السالك فى أشرف المسالك" فى مراتب الصوفية.

ومن علماء القرآن فى غرناطة أبو عبد الله الشريشى تلميذ ابن الخطيب ومساعده. وفى علم النحو برز شيخ النحاة بالأندلس، فى عصره أبو عبد الله محمد بن على الفخار الألبيرى، تلقى عنه ابن الخطيب، والوزير الشاعر ابن زمرك، وقد توفى بغرناطة عام ٧٥٤هـ (١٢٥٣م).

(*) المصدر السابق.

وفى علم الجغرافيا والتاريخ نذكر فى مقدمة المؤرخين لسان الدين ابن الخطيب، الذى خصص الكثير من مؤلفاته للتاريخ الإسلامى، وجغرافية المغرب والأندلس، والتى نذكر منها: "معيار الاختيار، فى ذكر المعاهد والديار"، وكتاب "نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب"، و"رقم الحلل فى نظم الدول".

ومن المؤرخين أيضا الشيخ محمد بن يحيى بن أبى بكر بن سعيد الأنصارى المالكى المولود عام ٦٧٤هـ (١٣٧٢م)، والمتوفى قتيلا فى معركة طريف، ومن كتبه "التمهيد والبيان، فى مقتل الشهيد عثمان بن عفان".

ومن المشتغلين بالرحلات أبو البقاء خالد بن عيسى، الذى سافر إلى الشمال الإفريقى واجتاز بلاد المشرق فيما بين عام ٧٣٦هـ (١٣٢٥م)، وعام ٧٤٠هـ (١٣٢٩م)، ثم دون هذه الرحلة فى كتابه الذى أسماه "تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق".

وفى مجال التخصص ظهر بعض العلماء فى غرناطة، ممن كتبوا فى الطب والفلسفة والعلوم والرياضة، مثل أبى زكريا يحيى بن هذيل، حكيم غرناطة وفيلسوفها، المتوفى عام ٥٧٣هـ (١٣٥٥م)، فقد طارت له شهرة فى هذه العلوم، وهو أحد شيوخ ابن الخطيب، ومن شيوخه المبرزين فى أكثر من علم الشيخ أبو عثمان سعد بن أحمد بن لبون التجيبى، أحد كبار الفقهاء، والذى قام بتخليص بعض مشاهير الكتب، مثل كتاب "بهجة المجالس" لابن عبد البر"، كما أسهم بنصيب معلوم فى علمى الفلاحة والهندسة(*).

وقد شارك ابن الخطيب فى علوم الطب بنصيب وافر، يدل على ما خلفه من تراث طبى، مثل مؤلفه "عمل من طب لمن حب"، وكتابه "الأصول لحفظ الصحة فى الفصول"، وغيرهما من المؤلفات الصحية والطبية.

(*) المقرى فى "نفح الطيب" جـ٣، ص٣٠٢.

هذه هى غرناطة المدينة الثقافية، والمركز الإسلامى فى المغرب الأوروبى تلك العاصمة التى أضاء إشعاعها العلمى فترة ليست بالوجيزة من تاريخ الوجود العربى الإسلامى فى الأندلس، والتى بقيت صامدة طيلة فترة حكم بنى الأحمر، الذين رعوا تلك النهضة الثقافية، بالرغم من حروبهم الأهلية فى الداخل، وصمودهم ومقاومتهم للنصارى الذين كانوا يتربصون بتلك القلعة الإسلامية الأخيرة، حتى سقطت أخيرًا فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيلا، بالتسليم فى ٢ يناير ١٤٩٢م، على نحو ما ذكرنا.

وهكذا انتزعت غرناطة، ومن قبلها فى الأندلس قرطبة كمدينتين ثقافيتين، من العالم الإسلامى، بعد أن أسهمتا فى الحقل الثقافى الإنسانى بدور هام شهد به المستشرقون الأوروبيون فى كثير من مؤلفاتهم.

رثاء الأندلس
بكائية الشاعر الأندلسى
أبى البقاء صالح الرندى

لعل من المناسب ختامًا لهذه المأساة التى أودتْ بفردوسنا المفقود، أن نُوردَ هنا هذه المرثية الخالدة، تلك التى جسدت هول الكارثة التاريخية الأندلسية، والتى هى فى غنى عن التعليق لما تضمنته من حسرات وأحزان على دولة الإسلام الكبرى بالأندلس...

لكـل شـيء إذا مـا تم نقـصان   فـلا يُغـر بطـيب العـيش إنـسان
هـى الأمـور كمـا شـاهدتها دول   مـن سـره زمـن سـاءته أزمـان
وهـذه الـدار لا تبقـى علـى أحـد   ولا يـدوم علـى حـال لهـا شـانُ
أيـن الملـوك ذوو التـيجان مـن يَمـنٍ   وأيـن مـا ساسـه فـى الفـرس ساسـان
وأيـن مـا حـازه قـارونُ مـن ذهـبٍ   وأيـن عـاد وشـداد وقحطـان؟
أتـى علـى الكُـل أمـرُ لا مَـرد لـه   حتـى قـضوا فكـأن القـوم مـا كانـوا
دار الـزمان علـى دارا وقاتلـهِ   وأم كـسرى، فمـا أواه إيـوان

* * *

دهـى الجزيـرة أمـر لا عـزاء لـه   هـوى لـه أُحُـدٌ وانهـدٌ ثهـلان

فجائـــع الدهـــر أنـــواع مـــنوعة ... وللـــزمان مـــسرات وأحـــزان
وللحـــوادث ســـلوان يُـــسهلها ... ومـــا لمـــا حـــل بالإســـلام ســـلوان
فاسْـأل بلنـسية مـا شـأن مرسـيةٍ ... وأيـــن شـــاطبة أم أيـــن جَـــيّان
وأيـــن قـــرطبةُ دارُ العلـــوم فكـــم ... مِـن عـالم قـد سمـا فـيها لـه شـان؟
وأيـن حِمـصُ ومـا تحـويه مـن نُـزوهٍ ... ونهـرها العـذب فـيّاض ومـلآن
قـواعد كـنّ أركـان الـبلاد فمـا ... عُـسى الـبقاء إذا لم يـبق أركـان

* * *

تبكـى الحنيفـية البيـضاء مـن أسـف ... كمـا بكـى لفـراق الإلـف ولهـان
علـى ديـار مـن الإسـلام خالـية ... قـد أقفـرت ولهـا بالـضغن عمران
حتـى المحاريـب تبكـى وهـى جامـدة ... حتـى المنابـر ترثـى وهـى عـيدان
يـا غـافلاً ولـه فـى الدهـرِ مـوعظة ... إن كـنت فـى سِـنةٍ فالدهـر يقظـان
وماشـــياً مـــرحاً يلهـــيه موطـــنه ... أبعْـدَ حِمْـصٍ تغـرُّ المـرءَ أوطـان
تلـك المـصيبة أنْـستْ مـا تقـدمها ... ومـا لهـا بعـد طـول الدهـر نـسيان

* * *

يـا راكـبين ظهـور الخـيل ضـامرة ... كأنهـا فـى مجـال الـسبق عقـبان
وحـاملين سـيوف الهـند مـرهفة ... كأنهـا فـى ظـلام الـنقع نـيران
أعـندكم نـبأ عـن أهـل أنـدلس ... فقـد سـرى بحديث القـوم ركـبان؟
كـم يستغيث بنا المستضعفون وهـم ... قتلـى وأسـرى فمـا يهتـز إنسان!
مـاذا الـتقاطع فـى الإسـلام بيـنكمُ ... وأنـتم يـا عـبادَ الله إخـوان؟
ألا نفـوس أبـيات لهـا هِمـم؟ ... أمـا علـى الخـير أنـصار وأعـوان؟

* * *

يـا مـن لذلـة قـوم عـند بـيعهم ... حـال حـالهم كفـرٌ وطغـيان

بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم — واليوم هم فى بلاد الضيم عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم — عليهم من لباس الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم — لهالك الأمر واستولتك أحزان
يا رُبَّ أم وطفل حيل بينهما — كما تفرق أرواح وابدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ — إن كان فى القلب إسلام وإيمان

المراجع

١ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب - للمراكشى.
تحقيق محمد سعيد العريان (نشر الدار البيضاء بالمغرب ١٩٧٨م)
٢ - العبر، لابن خلدون.
(طبعة بولاق - القاهرة ١٢٨٤هـ)
٣ - معيار الاختيار، فى ذكر المعاهد والديار - لابن الخطيب السلماني.
تحقيق ودراسة، للدكتور محمد كمال شبانة.
(نشر وزارة الأوقاف بالمغرب، ١٩٧٦م)
٤ - الإشارة إلى أدب الوزارة - لابن الخطيب السلمانى.
تحقيق ودراسة، للدكتور محمد كمال شبانة.
(الرباط - ١٩٨٠م)
٥ - الإسلام فى المغرب والأندلس، للمستشرق ليفى بروفنسال.
(الترجمة العربية / سلسلة الألف كتاب، رقم ٨٩ - القاهرة ١٩٥٦م).
٦ - المجمل فى تاريخ الأندلس، للأستاذ عبد الحميد العبادى.
(الطبعة الثانية - القاهرة - ١٩٦٤م)
٧ - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين،

للأستاذ محمد عبد الله عنان.
(القاهرة – ١٩٤٠م)
٨- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين،
للأستاذ محمد عبد الله عنان.
(القاهرة – ١٩٤٩م)
٩- أوصاف الناس فى التواريخ والصلات، لابن الخطيب السلماني.
تحقيق ودراسة الدكتور محمد كمال شبانة.
(نشر وزارة الأوقاف – المغرب – ١٩٧٧م).
١٠- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقرى.
(القاهرة – ١٩٤٠م) تحقيق الأستاذ محيى الدين عبد الحميد.
١١- كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس، لابن بشكوال.
(مدريد بإسبانيا – ١٨٨٣م).
١٢- صفة جزيرة الأندلس، للحميرى.
(القاهرة – ١٩٣٧م)
١٣- معجم البلدان، الياقوت الحموى.
(بيروت – ١٩٥٧م)
١٤- تاريخ الأمم والملوك، للطبرى.
(القاهرة – ١٩٣٩م)
١٥- الإحاطة فى أخبار غرناطة، لابن الخطيب السلماني.
(القاهرة – ١٩٨٠م – تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان).
١٦- الذخيرة، فى محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام
(القاهرة – ١٩٤٥م)

١٧ - يوسف الأول ابن الأحمر، سلطان غرناطة
للدكتور محمد كمال شبانه (القاهرة - ١٩٦٥م)
١٨ - كناسة الدكان، بعد انتقال السكان، لابن الخطيب السلماني
تحقيق ودراسة عن مملكة غرناطة للدكتور محمد كمال شبانة
(نشر الهيئة العامة للكتاب - القاهرة - ١٩٦٤م).
١٩ - الفتح الإسلامي للأندلس، للدكتور محمد عبد الحميد عيسى.
(نشر جامعة عين شمس - القاهرة - ١٩٨٥م).
٢٠ - تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي (٤ أجزاء).
للدكتور حسن إبراهيم حسن (الطبعة الرابعة - ١٩٨٠م - القاهرة).

الفهرس

هذا الكتاب

استطاع المسلمون الأوائل بما لديهم من عزيمةٍ وإصرارٍ على نشر دين الله عز وجل، أن يؤسسوا دولة إسلامية كبرى في بلادٍ تتنازعها الأهواء والفِتَن، وتتحكم فيها الحزبية والعصبية، ألا وهي دولة الأندلس الإسلامية التي غمرها نور الإسلام فحَوَّل ظلامَها وجهلَها إلى علم وحضارة ومدنية. وها هو «شارل مارتل» يخاطب جُنْدَهُ قائلًا: « لا تواجهوهم في إقبال أمرهم، فإن لهم إرادة قوية ونية صادقة، وحصانة من أن يُهزموا، حتى تهدأ أمورهم ويأخذوا في التنافس في الرياسة والمُلْك والمال، وعند ذلك تتفرق كلمتهم ويضعف أمرهم، فتتمكنون منهم بأيسر مجهود». وقد كان واللهِ ذلك، إذ تعاقب على حكم الأندلس حكام أقوياء وضعفاء، واجتمعت فيها عناصر مختلفة الأجناس ذات مصالح وآمال متضاربة كان لها أثر بالغ في ضعف الدولة على مدى الحكم الإسلامي لإسبانيا.. بل إن هذه العناصر تكاتفت في النهاية لتقضي على الدولة الأندلسية بفعل تطاحنها وثوراتها.. وها هو آخر أبناء حكامها يسلم مفاتيح غرناطة وهو يبكي، فتقول له أمه: «ابْكِ مثل النساء مُلكًا مُضاعًا لم تحافظ عليه مثل الرجال»!

* ومؤلف الكتاب هو الأستاذ الدكتور «محمد كمال شبانة»، أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعات مصر والسعودية والمغرب، وأحد رواد كتابة التاريخ الإسلامي. وتتميز كتاباته كلها بتجاوزها نطاق الأكاديمية الجاف الضيق إلى ميدان التثقيف العام على اتساعه وبساطته. ومن أشهر كتبه: «الإسلامُ فكرًا وحضارةً»، و«الدولة العربية الإسلامية»، و«مصر الإسلامية»، و«الدُوَيلات الإسلامية في المغرب».. وغير ذلك من مؤلفات كان لـ «دار العالم العربي» شرف طبعها ونشرها.



